وَقَفَاتٌ

مع

مَسْألَةِ طَلَبِ الدُّعَاءِ والشَّفَاعَةِ

من الأمْوَاتِ

إعداد : أبو مارية النجدي.

* * * * *









مُـقدمـــــة

الحمد لله وكفى ، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، أمّا بعدُ:

لا شك أنَّ كل عصرٍ انفرد بفتنته، مما جعل الخلقَ مختلفينَ على الدوام، متنازعين متشرذمين باستمرار، وكأنهم في سَكْرَةٍ؛ لكنها سُنَّةُ الله في الأرضِ من أجل اختبارِ عباده، قال تعالى:﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، أما في زماننا هذا، حيث النهاية وانتظار الساعة، فقد تضافرت علينا فتن الأولين والآخرين بخلاف ما انفردنا به، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، ومن جملة الفتن القديمة التي أُصيب بها زمانُنَا مسألة طلب الدعاء والشفاعة من الأموات، فقد انقسم فيها أهل الزمان إلى أقوالٍ متعددةٍ..

الفرقة المنتسبة إلى السلفية: منهم من يرى التكفير بها، مثل: ابن باز–وصالح الفوزان–والغنيمان–وشمس الدين الأفغاني–وصالح آل الشيخ–وغيرهم، ومنهم من يراها لا تربو عن بدعة وحسب، مثل: ابن عثيمين– والبراك– وبكر أبو زيد –وسليمان العلوان–وعبدالعزيز الطريفي–وغيرهم.

الفرقة المنسوبة إلى التكفير: حصل فيها نفس الانقسام، فعلى رأس من يرى التكفير بها: الحازمي–وحلمي هاشم–وعبدالحكم القحطاني–وزيدان الشريف الإدريسي المغربي–وغيرهم، وعلى رأس من يراها بدعة: ضياء الدين القدسي–وطلال البدوي وجماعته الاجتناب المطلق–وأبو مريم عبدالرحمن المخلف الكويتي– وغيرهم.

وأغلب النقاشات في هذه المسألة إن لم تكُ كلها محصورة حول تحقيق مذهب ابن تيمية، فمنهم من ينسب إليه القول بالتكفير، ومنهم من ينسب إليه القول بالتبديع، والمتأمل في هذه النقاشات يشعر أحيانًا أنَّ الدليل المعتمد في المسألة هو كلام ابن تيمية وحسب!، لا الكتاب ولا السنة، مما تسبب في زيادة فجوة النزاع، وإطالة الجدل العقيم في النقاش .. وخروجًا من هذه الطريقة المطاطة في الطرح، سأحاول في هذه الورقات بيان حقيقة المسألة بعرضها على الأصول الاعتقادية العامة المتفق عليها بين الجميع، وهذا لا يمنع مِنْ أنْ يكون لنا وقفة مطولة بعد ذلك مع تحرير مذهب ابن تيمية ...

علمًا بأني لم أَكُ راغبًا في فتح هذه القضة؛ خاصة مع عدم انتشارها في الأوساط العلمية والعملية بالقدر المتوسع؛ حتى وصلني فيها بحثين، أحدهما لأستاذنا الجليل (أبو أيوب)، والآخر لأخينا الفاضل (أبو عثمان) يقرر فيه أنَّ المسألة من الشرك الأكبر، مخالفًا لصاحب البحث الأول الذي ذهب إلى القول بالتبديع، وبناء على طلب أحد الأفاضل سأضع بعض الملاحظات الموجزة على البحثين، ومن قَبل وقفة مطولة مع تحرير المسألة، والله الموفق والمستعان.

موضوعات هذه الورقات:

لقد جعلتُ هذا البحث في اثنتى عشرة وقفة موجزة، وهي كالتالي:

الوقفة الأولى: ملاحظات على بحث الأستاذ.

وتحتها تسع ملاحظات.

الوقفة الثانية: بيان حقيقة التوحيد والعبادة.

الوقفة الثالثة : بين الدعاء وطلب الدعاء.

وتحتها خمس مسائل.

الوقفة الرابعة: صور طلب الدعاء من الأموات وحكمها .

وتحتها ست صور.

الوقفة الخامسة: التلقين نظير طلب الدعاء.

الوقفة السادسة : حكم نَدِاءُ الجماداتِ والمَغِيبِاتِ وعلاقته بموضوعنا.

الوقفة السابعة: طلب الدعاء بين البدعة والجواز.

وتحتها مطلبان.

الوقفة الثامنة : مسائل متعلقة بالأموات.

وتحتها سبع مسائل.

الوقفة التاسعة : مسائل متعلقة بالملائكة والجَانِّ.

وتحتها مسألتان.

الوقفة العاشرة: الشفاعة وأحكامها.

وتحتها سبعة مطالب.

الوقفة الحادية عشرة: علماء أجازوا طلب الشفاعة من الأموات.

وتحتها مطلبان.

الوقفة الثانية عشرة: تعليقات على بحث (أبي عثمان)

وتحتها خمس ملاحظات.

الوقفة الآخيرة: نصيحة وفضيلة.

ثُـــــمَّ، الخاتمـــــــــة.

الوقفة الأولى:

ملاحظات على بحث الأول.

في هذه الوقفة سأعرض ملاحظات سريعة على بحث الأستاذ، وهو ممن يرى تبديع المسألة، ولا أريد أن يَفهم القاريء الكريم أنيَّ مختلفٌ معه أو متفق، إنما هي وقفة مع طريقة الاستدلال وحسب، قصدتُ منها اطلاع القاريء على جميع أبعاد القضية، أمَّا بيان حقيقة المسألة ففي الوقفات القادمة ..

الملاحظة الأولى :

قال الأستاذ في بحثه:" **وطلب الدعاء من الميت عند قبره هو طلب شئ من أفعال العبد لا من أفعال الرب، والشرك لا يكون إلا بإعطاء العبد أفعال الرب**".اهـ

قلتُ : هذا الكلام لا يستوعب حقيقة الشرك كاملة من وجهين:

الأول: إنَّ الشركَ لا يقتصر فقط على صرف أفعال الرب لغيره، فهذا شرك الربوبية، أما الإلوهية فمبناها على اختصاص بعض أفعال العبد لله وحده، فمثلًا الصلاة لا يقال عنها : إنَّها من أفعال الرب، بل هي من أفعال العبد التي يجب أنْ لا تُصرف إلا لله.

والثاني: لا يعني أنَّ طلب الدعاء من أفعال العبدِ أنَّه خالٍ من الشركِ، فمثلًا طلب إصلاح سيارة متعطلة أو طلب الإصلاح بين الزوجين من أفعال العبد، إلا إنَّ طلب ذلك من الميت يُعَدُّ من الشرك الأكبر بلا نزاع، أو كأن يَطلب أحدهم من ميتٍ إخماد حريقٍ مثلًا.. ومن ثمَّ لا يكفي تقريرك أنَّ طلب الدعاء من أفعال العبد لإخراجه من الشرك الأكبر، وتفصيل هذا سيأتي قريبًا.

الملاحظة الثانية :

قال الأستاذ :" **وضابط الدعاء الشركى أن يكون فيما لا يقدر عليه إلا الله**".اهـ

قلتُ : هذا الضابط غير تام، ومع اطراده تخرج بعض صور الشرك المتفق عليها، فمثلًا ما رأيك فيمن طَلَبَ مِنْ صاحب قبرٍ أن ينقده من الغرق .. فهذه الصورة ولاشك من الشرك الأكبر مع أنَّ الطلب الموجود فيها مما يقدر عليه البشر، وليس مما لا يقدر عليه إلا الله .. وحتى هنا لا يصح التفريق بين قُرْبِ الطالب من القبر أو بُعْدِهِ، فلو افترضنا مثلًا أنَّ شخصًا يغرق بالقرب من حافة البحر، فنظر إلى الحافةِ فوجدَ قبرًا، فقال للمقبور: أنقذني من الغرق، فهذا ولا شك من الشرك الأكبر مع أنَّ نفس الطلب إنْ طلبه من شخصٍ حي يمشي بجوار الحافةِ لم يَكْفُرْ.

قال الأستاذ:" **أصل الشرك تسوية المخلوق بالخالق**".اهـ

قلتُ: هذا صحيح، ولا يُشترط لحصول التسوية أن يكون الطلب مما لا يقدر عليه إلا الله كما تقدم من أمثلة.

الملاحظة الثالثة:

قال الأستاذ:" **من سأل ميتا أن يدعو الله له ، فقد طلب منه أن يعبد الله بالدعاء له .. فمثله فى ذلك كمن طلب من ميت أن يصلى أو يصوم أو يقرأ القرآن** ".اهـ

قلتُ: كل هذا أيضًا لا يكفي لإخراج المسألة من الشرك؛ بدليل الاتفاق على كُفْرِ مَنْ طَلَبَ نفس الطلب عن بُعْدٍ، وإلا فهل يمكن أنْ يُقال أيضًا : إنَّ مَنْ طلب الدعاء من الميت وهو بعيد عنه لا يكفر لأنه طلب من الميت أن يعبد الله ؟! .. إن قيل: يَكْفُرُ؛ لإهداره معاني الربوبية، قيل: إذًا لا فائدة من التقرير المتقدم؛ مادام لا يستحيل معه حلول الشرك، فصار كالوصف غير المؤثر .

وكلامك المتقدم قد يكون أقرب إلى الصحة إنْ وجهته على الطالب من الحي القادر، كأن أقولُ لكَ: ادعُ الله لي، فصار الطلب ههنا مجردًا ولا يلزم منه أي إخلالٍ بالتوحيد.

أمَّا طلب الدعاء من الأموات فيلزم منه عدة لوازم عند المخالف لك، كطلب الدعاء من الملائكة والجانّ ..

- قال ابن تيمية :" وإذا جاز طلب هذا منه-أي الدعاء-، جاز أن يطلب ذلك من الملائكة، فيقال: يا جبريل، يا ميكائيل، اشفع لنا إلى ربك، ادع لنا، ومعلوم أن هذا ليس من دين المسلمين، ولا دين أحد من الرسل.. بل هذا أصل الشرك ".اهـ كتاب: قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الاسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق.

- وقال عبدالرحمن بن حسن: "فإذا لم يجز ذلك في حق الملائكة الحاضرين فإنه لا يجوز في حق أرواح أموات قد فارقت أجسادها".اهـ مجموعة الرسائل والمسائل

الملاحظة الرابعة:

قال الأستاذ:" **لا مجال لتكفير من طلب من الأموات الدعاء إذا رجح لديه أنهم يسمعون**".اهـ

قلتُ:

1- الجهة ههنا منفكة، فلا علاقة بين ثبوت السماع أو انتفائه وبين التكفير، فإذا ترجح لدى أحدهم سماع الميت ومع هذا طلب منه إصلاح سيارته المتعطله، أو إنقاذه من أسدٍ هجم عليه، فهذا مشركٌ ولا شك، ولا اعتداد بترجيحه للسماع، مع أن ما طلبه في مقدور أحياء البشر.

2- علمًا بأن سماع الأموات إنْ صَحَّ ثبوته، فهو سماع إدراك، لا سماع قبول واستجابة، قال تعالى:﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾

- قال ابن تيمية:" وهذا السمع سمع إدراك ليس يترتب عليه جزاء، ولا هو السمع المنفى بقوله {إنك لا تسمع الموتى}فإن المراد بذلك سمع القبول والامتثال فإن الله جعل الكافر كالميت الذي لا يستجيب لمن دعاه".اهـ مجموع الفتاوى.

3- وقد ذكر ابن تيمية في ثنايا ردِّهِ على البكري قاعدة مهمة جدًا، وهي إنَّ الميت على القول بسماعه وسماع النبي خصوصًا، فإنه لا يسمع بقوة أكبر من قوة سماعه في الدنيا .

الملاحظة الخامسة:

قال الاستاذ:"**ولكن طلب الدعاء من النبى لا يكون إلا بهذه الوسيلة (أي بإلقاء السلام عليه)**".اهـ

قلتُ: تقريرٌ خطأ، فإلقاء السلام على النبي حاصله أنه دعاءٌ منَّا للنبي، ولا يشمل أي طلبٍ منه.

قال ابن الحجر: "وَمَعْنَى قَوْلنَا: السَّلَام عَلَيْك الدُّعَاء أَيْ سَلِمْت مِنْ الْمَكَارِهِ".اهـ فتح الباري.

فإن كان مِنْ طلبٍ فهو من الله أن يُسَّلم نبيه من المكاره، وهو بعيد كل البعد عن محل النزاع، وغاية ما يمكن أنْ يُقال ههنا إنَّه تسببٌ، كما في قوله تعالى:﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا﴾، فلا يصح أنْ يُفهم مِنْ الآية أنَّ مَنْ سَبَّ آلهتهم فقد طلب منهم سَبَّ إلهنا بموجب السببية، ومثله يُقال في إلقاء السلام، علمًا بأن رَدَّ السلامِ أمرٌ توقيفي كالعبادات، لذا عندما يُلْقِي علينا أحدٌ السلام في الشارع مثلًا لا نفهم منه أنَّه طلب دعائنا له، وبناءً عليه فإنَّ رَدَّ النبي للسلام لا يعني بالمرة استجابته لأحد؛ إذ لا طلب أصلًا، ومن ثم فلا استجابه.

الملاحظة السادسة:

قال الأستاذ:" **ويبدو لنا أن ابن كثير عبر عن الفريق الأول الذين يرون مشروعية طلب الاستغفار من الرسول عند قبره وأن ذلك جائز عنده بإيراده لقصة العتبى دون نقد أو قدح أو تعليق**".اهـ

قلتُ: الاقتصار في تحقيق مذهب ابن كثير على رواية العتبي التي سردها في تفسيره لا يكفي؛ لأن الرواية التي أوردها ابن كثير قيل فيها :"وقد جئتك مستغفرًا لذنبي مستشفعا بك إلى ربي".اهـ ، وهذه المقالة على هذا الوجه محتملة، فقد يكون معناها وقد جئتك مستغفرًا الله لذنبي، مستشفعًا بك إلى ربي= أي سائلًا الله أن يرزقني شفاعتك يوم الدين ..مما يعني أنَّ طلب العتبي كان من الله، لا من النبي..

الملاحظة السابعة:

قال الأستاذ:" **فنجد للعلماء أقوال فى أن طلب الدعاء ليس مستحبا ..فهل مثلا يصلح أن يقال عن عبادة الأصنام أن الصحابة لم يكونوا يفعلونه ؟! أو أن هذا غير مستحب ؟!**.اهـ

قلتُ: المتتبع لطريقة ابن تيمية في تأصيلاته وإطلاقاته يعلم أنَّه يُلقي هذه الجمل وأمثالها على الشرك الأكبر والأصغر، مثال ذلك:

- قال ابن تيمية :"فإن دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفي مغيبهم ، وسؤالهم والاستغاثة بهم ، والاستشفاع بهم في هذه الحال ، ونصب تماثيلهم ، بمعنى طلب الشفاعة منهم ، هو من الدين الذي لم يشرعه الله ، ولا ابتعث به رسولاً ، ولا أنزل به كتاباً ، وليس هو واجباً ولا مستحباً باتفاق المسلمين ، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا أمر به إمام من أئمة المسلمين ، وإن كان ذلك مما يفعله كثير من الناس ممن له عبادة وزهد ، ويذكرون فيه حكايات ومنامات ، فهذا كله من الشيطان ، وفيهم من ينظم القصائد في دعاء الميت والاستشفاع به والاستغاثة ، أو يذكر ذلك في ضمن مديح الأنبياء والصالحين ، فهذا كله ليس بمشروع ، ولا واجب ولا مستحب باتفاق أئمة المسلمين، ومن تعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة وهو يعتقدها واجبة أو مستحبة ، فهو ضال مبتدع بدعة سيئة لا بدعة حسنة باتفاق أئمة الدين، فإن الله لا يعبد إلا بما هو واجب أو مستحب ".اهـ مجموع الفتاوى.

فتأمل إطلاقه على دعاء الملائكة والأنبياء وفي مغيبهم بأنَّه ليس بواجب ولا مستحبٍ، ولم يفعله الصحابة، ولولا خشية الإطالة لنقلتُ أكثر من ذلك .

الملاحظة الثامنة:

قال الأستاذ:"**ومنهم من قد يعبر بالشرك الأكبر سدًا للذريعة وغلقا للباب الفتن المنتشرة**".اهـ

قلتُ: لعل هذا الكلام يصح إنْ كنا نقصد به توجيه كلام ابن تيمية، أما النجديون ومدرسة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فالظاهر من كلامهم الإطباق على أنها من الشرك الأكبر، بل وقد نقل بعضهم الإجماع على ذلك، ولعل ما يدل على هذا موقفهم من الشيخ إبراهيم بن جاسر – أحد علماء نجد وله ترجمة معهم– حينما أخطأ في عدد من المسائل، وجانب العقيدة النجدية، فنوصح من مشايخه وعلماء عصره، فتفكر وتأمل، ثم كتب وجهر برجوعه عنها، قائلًا في وثيقة محفوظة بمكتبة الحرم : " الحمد لله الذي جعل الرجوع إلى الحق بعد بيانه من سيما المتقين وإمارات المتورعين المخلصين لله الدين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك إله الأولين والآخرين ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، صلى الله عليه وعلى أصحابه أجمعين ، أما بعد : فإن الله تعالى إذا قضى أمرًا فلا راد له ، ولا بد من وقوعه ، وكان من قضائه – له الحمد على كل حال – أن أراد وقوع نزاع بين الفقير وبين

مشايخه الكرام – عفى الله عن الجميع ووهب المسيئين منا للمطيع – في 7 شوال سنة 1303هـ في أربع مسائل:أحدها : أنهم كانوا يقررون لنا سابقًا ولاحقًا أن من طلب من الميت ما هو في قُدرة الحي ؛ كأن يقول : يا فلان ادعُ الله لي فهو كافر ، وكنتُ لهم موافقًا ، فعرض لي في أثناء السنة المذكورة في نسخة لشيخ الإسلام فهمتُ منها أن ذلك ليس بكفر ، فاعتمدتُ على ذلك ، فلما شعر المشايخ بذلك شق ذلك عليهم ، وتكابروا صدوره مني ، وهم في نفس الأمر مصيبون ، ثم استبان لي بعد ذلك أن الحق ما كانوا عليه ابتداء وانتهاء ، ثبّت الله الجميع عليه ، فرجعتُ إلى قولهم اعتمادًا على الدليل الشرعي، لا موافقة بظاهري دون باطني ، فالله حسيب من ظن ذلك بي ؛ وهو ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله: " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له "، فأخبر النبي أن الميت إذا مات فقد انقطع عملُه إلا من شيئ قد تسبب له في حياته ، واكتسبه حال قدرته ؛ فأجري ثوابه بعد موته ، وهي ما ذكر في هذا الحديث .. وما عدا ما ذُكر لا يلحقه إلا بإهداء الغير له كما دل على ذلك القرآن والسنة ، فمن طلب من الميت أن يسأل له الله فقد ضل عن الصراط المستقيم ، وخالف خبر النبي في أنه قد انقطع عملُه . فإن قال قائل : لا ريب في ذلك ، وإنما الشأن في أنه هل يكفر ؟ قلنا : نعم . فإن قال : هذا خبر آحاد لا يوجب العلم اليقين ، وإنما يوجب العلم الظني . قلنا : هذا حكم خبر الآحاد إذا لم تحتف به قرائن ، فأما إذا احتفت به قرائن فإنه يوجب العلم القطعي ، وقد احتف بهذا الخبر قرينة من أقوى القرائن ، وهي ما علم بالضرورة من الدين من قدرة الحي فقد اعتقد ثبوت ما هو معلوم من الدين بالضرورة انتفاؤه ، فيستحق إطلاق الكفر عليه حينئذ ، ومن جوامع كلمه: " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " ، رواه مسلم ، وقال تعالى : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) ، وهذا القدر كفاية لمن هداه الله ، اللهم اهدنا والمسلمين...(ثم ذكر المسألة الثانية والثالثة والرابعة ورجوعه عنهما)".انتهى كلامه.

والحاصل إنْ كان إطلاق النجديين عليها أنها شركٌ من باب الذريعة، فكيف يختلفون مع رجلٍ منهم لم يجزها، بل ظن فقط أنها بدعة تفضي إلى الشرك!..بل وتكابروا عليه وغضبوا منه..حتى تراجع إلى قولهم؟! .

الملاحظة التاسعة:

قال الأستاذ:" **الشفاعة الشركية :وتكون باتخاذ وسائط من الملائكة أو الصالحين أو غيرهم وقصدهم لجلب نفع أو دفع ضر بدعائهم والتقرب إليهم** ".اهـ

قلتُ: هذا خروج عن المحل؛ لإناطتك الشفاعة بمناطٍ خارج عنها، وهو الدعاء، فصرت وكأنك لم تفعل شيئًا..ولنا وقفة في هذه الورقات مع بيان حقيقة الشفاعة الشركية .

الوقفة الثانية :

بيان حقيقة التوحيد والعبادة.

إنَّ بيان حقيقة التوحيد والعبادة في هذا الصدد لَهُوَ في غاية الأهمية؛ لأنها الفيصل والمرجعية في تحديد شركية هذه المسألة أو بدعيتها، لا كلام ابن تيمية ولا غيره من البشر، مع وجوب التقدير والاحترام لمكانة العلماء، فإن ثَبَتَ أنَّ طلب الدعاء من الميت عبادة، فقد انتهت المسألة بالحكم عليها بالشرك، وإن ثبت انفكاكها عن معاني العبادة، فقد انتهت بالحكم عليها بما دون الشرك، لذا كانت هذه الوقفة الموجزة هي عمدتنا فيما سيتم تقريره في هذه الورقات.

أولًا: توحيد الربوبية:

توحيد الربوبية هو فعل الرب، وحاصله إفراد الله بأفعاله، بخلاف توحيد الإلوهية والعبادة فهو فعل العبد، وحاصله إفراد الله ببعض أفعالنا ..

– قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب :" توحيد الربوبية: فعل الرب، مثل الخلق والرزق والإحياء والإماتة وإنزال المطر وإنبات النباتات وتدبير الأمور، وتوحيد الألوهية: فعل العبد، مثل الدعاء والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والرغبة والرهبة والنذر والاستغاثة وغير ذلك من انواع العبادات".اهـ الدرر السنية.

ويدخل في توحيد الربوبية كذلك السمع المطلق، والعلم المطلق، والقدرة المطلقة، وتدبير الكون، فإنها من أفعال الربَّ سبحانه..

1–ودليل اختصاصه سبحانه بالسمع المطلق؛ قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

2–ودليل اختصاصه سبحانه بالعلم المطلق؛ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

3–ومنه اختصاصه سبحانه بعلم الغيب، قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾

4–ودليل قدرته المطلقة سبحانه؛ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

5–ودليل اختصاصه بتدبير الكون والتصرف فيه؛ قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾، وكذا قوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾

ثانيًا: توحيد الإلوهية والعبادة :

وهو الأصل الأعظم الذي فارق عليه الرسل أقوامهم، قال تعالى:﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، والعبادة لها معنى وجوهر، ولها كذلك مفردات في الخارج، ومعناها ثابت قبل الشرع لغة وعقلًا، ثم أتى الشرع بوضع هذا المعنى في قوالب عمليةٍ، وهي مفردات العبادة .

العبادة كمعنى:

هي غاية الخضوع والذل، وهذا المعنى متفق عليه بين علماء اللغة والشرع...

- قال ابن سيده:"كل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة ".اهـ المخصص في اللغة.

- وقال الجوهري:"جنس من الخضوع لا يستحقه إلا الله تعالى وهو خضوع ليس فوقه خضوع ".اهـ المطلع.

- وقال البيضاوي:" العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلّل ".اهـ تفسيره.

- وقال النسفي :" العبادة وهي أقصى غاية الخضوع والتذلل" .اهـ تفسيره.

وعلى هذا المعنى وقع الاتفاق بين سائر علماء السنة، إلا عند مدرسة ابن تيمية، فقد زادوا على هذا القدر كمال الحب، وهو مما تفردوا به عن جمهور السلف، وهذه الزيادة لا تُعقل إلا من جهة العبادة المجزئة، لا من جهة العبادة الحدية؛ لأسباب عدةٍ لا يتسع المقام لذكرها .

والعبادة بهذا المعنى ليست لها ترجمة بنفسها في الخارج، لذا كان زيد بن عمرو يقول:" اللهم لو أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به "اهـ. سير أعلام النبلاء.

العبادة كمفردات:

هي عبارة عن أقوال وأفعال خلقها الشارع تتضمن معنى العبادة المتقدم، فصارت وكأنها تطبيق فِعْلِي لهذا المعنى، ومصاديق له في الخارج، ولذلك فإن كمال الخضوع والذل لا ينفكان عنها أبدًا، ومن هنا كان تسميتها بالأفعال الخضوعية التعبدية، وهي كالدعاء والصلاة والصوم والتحاكم وغيرها، فإنَّ العبادة كمعنى ملازمة لهذه الأفعال على الدوام ..

- قال القاضي أبو يعلى:"حقيقة العبادة هي الأفعال الواقعة لله عز وجل على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد ".اهـ المعتمد في أصول الدين.

- وقال ابن تيمية :" العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والصيام والحج .. تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة".اهـ الفتاوى الكبرى.

- وقال ابن تيمية :" والعبادات تتضمن كمال الحب وكمال الخضوع".اهـ منهاج السنة.

توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الإلوهية والعكس:

وتوحيد الله بأفعال ربوبيته يلزم منه عبادته، فإنْ اعتقدتَ أنَّ الله هو الرزَّاقُ وحده، فيلزم منه طلبكَ الرزق منه وحده، وهذا هو الدعاء، والدعاء عبادة، وإنْ اعتقدتَ أنَّه الحَكَمُ وحده، فلازم هذا تحاكمكَ إليه وحده، لا إلى غيره، فالتحاكم على هذا عبادة، ومن ثَمَّ فإنَّ الربوبيةَ مستلزمةٌ لمفرداتِ العبادةِ كالصلاة والصوم والدعاء والتحاكم وغيرها..

وأيضًا يصح العكس، فتوحيد الإلوهية مستلزم كذلك لتوحيد الربوبية، فإن دعوتَ الله وحده، فهذا يلزم منه بدلالة التضمن أنَّكَ تعتقد فيه القدرة والسمع والعلم على وجه الإطلاق.

- قال ابن تيمية :" فالتوحيد الذي بعث الله به رسله وانزل به كتبه هو ان يعبد الله وحده لا شريك له فهو توحيد الالوهية وهو مستلزم لتوحيد الربوبية".اهـ الاستقامة.

- وقال ابن تيمية:" الإلهية تتضمن الربوبية والربوبية تستلزم الإلهية".اهـ الفتاوى الكبرى.

الفرق بين الأفعال التعبدية والأفعال العادية:

وبفهم حقيقة العبادة يتجلى الفرق بين الأفعال التعبدية والأفعال الاعتيادية..

الأفعال التعبدية : تتضمن معاني العبادة (كمال الخضوع وكمال الذل)، وهي تصوير ومفردات لهذه المعاني في الخارج، لذا كان صرفها لغير الله شركًا أكبرًا؛ لأن الخضوع المطلق لا يكون إلا لله وحده.

الأفعال العادية : فلا تتضمن هذه المعاني، لذا سُميت بالأفعال العادية، وصرفها لغير الله لا شرك فيه ولا كفر، وهي كالأكل والشرب والابتسامة وغيرها مما يصلح أن تعطيه للبشر أو تصرفه له أو تطلبه منه، وهذا هو ضابط التمييز بين الأفعال والحكم عليها .

تعريف الشرك:

هو تسوية غير الله بالله فيما هو مختصٌ بالله وحده، وهذه التسوية قد تكون في الربوبية، وقد تكون في الإلوهية والعبادة، وقد تكون في كليهما، قال تعالى:﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقال تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾، وقال تعالى:﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

- قال النسفي في تفسيره:"{بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} يساوون به الاوثان".اهـ

- قال ابن تيمية:"وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده".اهـ الاستقامة.

الوقفة الثالثة

بين الدعاء وطلب الدعاء.

وتحت هذه الوقفة خمس مسائل:

المسألة الأولى: الفرق بين الدعاء وطلب الدعاء.

المسألة الثانية: أنواع اللوازم.

المسألة الثالثة: تعريف الدعاء وبيان مناطاته.

المسألة الرابعة: هل طلب الدعاء دعاء؟

المسألة الخامسة: حقيقة شرك الدعاء.

المسألة الأولى: الفرق بين الدعاء وطلب الدعاء.

وسأضع ههنا عدة فروق بينهما بناءً على الأصول العامة المتقدمة .

الدعاء : هو من الأفعال التعبدية؛ وينطبق عليه تعريف العبادة كمفردات؛ لتضمنه كمال الخضوع لغير الله، لذا كان صرفه لغير الله شركًا مجردًا، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾

طلب الدعاء: هو من الأفعال العادية كالأكل والشرب؛ لعدم تضمنه كمال الخضوع، فلا ينطبق عليه تعريف العبادة كمعنى، ولا كان يومًا من مفرداتها وصورها في الخارج، ولعل أقوى ما يدل على ذلك،

1- جواز طلبه من الأحياء، فقد قال النبي لعمر:"لا تنسنا يا أخي من دعائك"، فلو كان عبادة مجردة ما جاز طلبه من الأحياء، ومن هنا كان محل الشرك المتعلق بهذه المسألة لا يكون على وجه التجريد كما في الدعاء، بل إنْ وجد فهو على وجه اللزوم .

2- ومما يدل كذلك على أنَّ طلب الدعاء ليس عبادة عدم استلزم توحيد الربوبية له، فتوحيد الربوبية مستلزم للإلوهية كما تقدم، ولا يقول عاقلٌ في دنيا البشر أن توحيد الربوبية مستلزم لطلب الدعاء من الناس!، ومن ثمَّ وجوب إفراد الله بطلب الدعاء من الناس!

وخلاصة الفرق بين الدعاء وطلب الدعاء، إنَّ الأول عبادة محضة، أما الثاني فليس بعبادة أصلًا، ومن ثَّم فالأول شركٌ مجردٌ في ذاته، أما الثاني فإن كان من شركٍ فيه فهو شركٌ لغيره من باب اللازم.

المسألة الثانية : أنواع اللوازم.

اللازم : هو ما يمتنع انفكاكه عن الشيء الملزوم، وهو إما داخل فيه، أو خارج عنه، والأول هو الذاتي الضمني، والثاني هو العرضي.

- قال الزركشي:" والفرق بين العرضي اللازم والذاتي : أن العرض اللازم يكون بعد تحقيق الشيء والذاتي يكون مقدما على حقيقة الشيء ، فإن الضحك وصف للإنسان بعد تحققه إنسانا ، والحيوان وصف له مقدم ذهنا على كون الإنسان إنسانا ".اهـ البحر المحيط

ومثال الذاتي : تحاكم بعض المشركين إلى الطاغوت، يلزم أن يسبقه لازمًا ذاتيًا وهو أنَّ الحكم بمعناه القضائي ليس لله، وهو ما قرره بعضهم فعلًا..!

أمّا العرضي اللازم فينقسم إلى نوعين هما : اللازم البيِّن، واللازم غير البيّن(الخفي).

النوع الأول: اللازم البيّن : هو ما لا يحتاج في إثباته إلى دليل، وينقسم إلى قسمين:

1- لازم بين بالمعنى الأخص: وهو ما يكفى فيه تصور الملزوم فقط؛ للجزم باللزوم بينه وبين اللازم، مثال:النار والحرارة، فمن تصور النار تصور تلقائيًا الحرارة، وقطع باللزوم بينهما بلا أدنى دليل.

- قال ابن الهمام :" (اللازم)..بِالْمَعْنَى الْأَخَصِّ وَهُوَ كَوْنُ اللَّازِمِ يَحْصُلُ فِي الذِّهْنِ كُلَّمَا حَصَلَ الْمُسَمَّى فِيهِ".اهـ التقرير والتحبير

2- لازم بين بالمعنى الأعم: وهو ما لابد فيه من تصور الملزوم واللازم حتى نجزم باللزوم بينهما، مثال: لزوم المغايرة بين الأسد والنمر، لا بد أن تتصور الأسد أولًا، ثم تتصور النمر ثانيًا، كي تقطع بلزوم المغايرة بينهما.

قال ابو البقاء الكفومي:" واللازم البين بالمعنى الأعم هو الذي يكفي تصوره ملزومه في جزم العقل باللزوم بينهما كالانقسام بمتساوين للأربعة، واللازم البين بالمعنى الأخص هو الذي يلزم من تصور ملزومه تصوره ككون الاثنين ضعف الواحد، فإن من تصور الاثنين أدرك أنه ضعف الواحد".اهـ كتاب الكليات

النوع الثاني: اللازم الخفي(غير البين):

وهو ما يحتاج في إثباته إلى دليل، بخلاف البين فإنه لا يحتاج إلى دليل، ومثال اللازم الخفي لو ابتدع إنسان بدعة، وزعم أن فيها خيراً، فإنه يلزم من قوله أن النبي خان الأمانة؛ لعدم تبليغه بهذا الخير.

ضابط قاعدة لازم المذهب ليس بمذهب:

وهذه القاعدة محمولة على اللازم الخفي، والصحيح أن لازم المذهب هو مذهب إن كان اللازم بينًا، أما إن كان غير بَيِّنٍ فلازم المذهب ليس بمذهب.

- جاء في حاشية الدسوقى على الشرح الكبير :" وَأَمَّا قَوْلُهُمْ لَازِمُ الْمَذْهَبِ لَيْسَ بِمَذْهَبٍ فَمَحْمُولٌ عَلَى اللَّازِمِ الْخَفِيِّ ".اهـ

- وقال ابن العطار :" لازِمَ المذهَب لا يُعَدُّ مَذهَبا إلا أن يكونَ لازما بَيّنا فَإِنَّهُ يُعَدُّ".اهـ حاشيته على شرح الجلال لجمع الجوامع

قاعدة: انتفاء الملزوم لانتفاء اللازم.

ومثال هذه القاعدة : وجود الشمس يلزم منه طلوع النهار، فإن انتفى طلوع النهار انتفى طلوع الشمس..

- قال الآمدي :" قوله تعالى { قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني } ومحبه الله واجبة، والآية دلت على أن متابعة النبي عليه السلام لازمة لمحبة الله الواجبة، ويلزم من انتفاء اللازم انتفاء الملزوم".اهـ الإحكام

- وقال ابن تيمية :" عَدَمَ اللَّازِمِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ الْمَلْزُومِ".اهـ رفع الملام عن الأئمة الأعلام

وإن كان الملزوم ينتفي بانتفاء لازمه، فمن باب أولى انتفاء اللازم لانتفاء الملزوم..

- قال ابن تيمية:"فَإِذَا كَانَ الْمَلْزُومُ قَدْ عَلِمْنَا انْتِفَاءَهُ قَطْعًا، لَمْ يُمْكِنْ إِثْبَاتُ لَازِمِهِ".اهـ منهاج السنة.

المسألة الثالثة: تعريف الدعاء وبيان مناطاته.

الدعاء لغة: هو الطلب والنداء عامة.

- قال ابن سيده:" الدّعاء طلب الطّالب للفعل من غيره".اهـ المخصص

- وقال ابن منظور:" دَعا الرجلَ دَعْواً ودُعاءً : ناداه".اهـ لساه العرب

والدعاء شرعًا: هو تقييد للمعنى اللُغوي، كما هو الشأن في أغلب التعريفات الشرعية، فالدعاء الشرعي التعبدي هو طلبٌ مقيد ونداءٌ مخصوصٌ، وتُعرف حقيقة ماهيته ومناطاته بالنظر في الربوبية والإلوهية معًا.

أمّا ما يتعلق بالإلوهية : فالدعاء شرعًا هو طلب ما لا يقدر عليه إلا الله، أو النداء بما لا يقدر عليه إلا الله، ويتوجب هذا التقييد؛ لأن لله قدرة وللعبد قدرة، وغايته الاحتراز مما يتعلق بقدرة العبد، وإخراج طلب ما يقدر عليه البشر ونداءاتهم، وإلا كَفَرَ جميع الخلق إن كان مطلق الطلب والنداء عبادة، ومن هنا تعلق الدعاء الشرعي بقدرة الإله التامة لا بقدرة العبد المحدودة، وهو المستلزم للعبادة كمعنى وجوبًا.

أما بالنظر إلى الربوبية : فالدعاء الشرعي هو ما يتضمن ذاتيًا صفات الربوبية كعلم الغيب والتصرف في الكون وتدبيره والسمع المطلق والعلم المطلق وغيرها، ومن هنا كان صرفه لغير الله شركًا وإن كان الطلب مما يقدر عليه البشر، كمن طَلَبَ من الميت إصلاح سيارته، أو الإصلاح بينه وبين زوجته، فهذا يتضمن اعتقاده تصرف الميت في الكون وتدبيره كما سيأتي بيانه.

ضابط الدعاء الشركي:

ومن ثَمَّ فإن ضابط الدعاء الشركي هو دعاء غير الله بما لا يقدر عليه الا الله، وأن لا يتضمن الدعاء اعتقادًا في المدعو، والقيد الأول للاحتراز من هدم الإلوهية، والثاني للاحتراز من هدم الربوبية.

- قال الألوسي: "وقوله -أي ابن جرجيس- لو كان مطلق النداء والطلب عبادة إلخ، منادٍ على جهله وغباوته؛ إذ لم يقل -أي الشيخ المجدد- إن مطلق النداء والطلب يكون دعاء عبادة، بل المعلوم بالبداهة أن دعاء العبادة هو النداء بما لا يقدر عليه إلا الله وطلب ذلك من حي وميت".اهـ تتمة منهاج التأسيس والتقديس

المسألة الرابعة: هل طلب الدعاء دعاء؟

الجواب : نعم، هو دعاءٌ لكن بالمعنى اللغوي، وليس دعاءً بالمعنى الشرعي؛ لأن الدعاء لغة هو الطلب والنداء عامة، فكل مَنْ طلب من أحدٍ شيئًا، أو ناداه، فيصح أن ينطبق عليه اسم الدعاء لغة.

أما الدعاء بالمعنى الشرعي، فهو كما قدمنا، وهو مما اختص به الربُّ سبحانه، لذا صرفه للأحياء والأموات شركٌ ظاهر، ولا يقول عاقل في الدنيا إنَّ طلب الدعاء مما اختص به الإله سبحانه !

وأيضًا لا ينطبق عليه اسم الدعاء شرعًا؛ للأسباب المتقدم ذكرها، ومنها عدم استلزام توحيد الربوبية له، ومنها عدم انطباق العبادة كمعنى ومفردات عليه، ومنها تعلقه بقدرة البشر المحدودة، لا بما لا يقدر عليه إلا الله، ومنه جواز طلبه من الأحياء، وإلا فلو انطبق عليه تعريف الدعاء الشرعي لتوجب الحكم بكفر الطالب، بموجب عبادته للمطلوب منه حيًا كان أو ميتًا ..

الاستدلال الأول على الفرق بين الدعاء لغة وشرعًا :

ويتضح الفرق بين الدعاء لغة وشرعًا بتأمل الفرق بين الآيتين التاليتين:

قال تعالى:﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا ﴾

وقال تعالى:﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا..إلى قوله..وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً﴾

فقد نادى نوحٌ عليه السلام ابنه، ونادى زكريا عليه السلام رَبَّهُ، وسَمَّتْ الآية نداءَ زكريا دعاءً، فهل نداء نوح من جنس نداء زكريا؟ ، وهل هو دعاءٌ أيضًا؟ ، ومن ثَمَّ فهل كل نداء دعاء وعبادة؟

الجواب: بالطبع لا، وإلا فقد وقع نوح عليه السلام في عبادة ابنه والعياذ بالله، مما يوجب التفريق بين نداء نوح ونداء زكريا، والفرق بينهما واضح، فالأولى لُغوي، والثاني شرعي فيه نداء بما لا يقدر عليه إلا الله، دَلَّ على هذا قول زكريا في نفس الآية :﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي ..﴾، فنداؤه بالإنجاب والذرية مما لا يقدر عليه إلا الرزَّاق سبحانه، وهو يختلف عن نداء نبي الله زكريا نفسه في قوله تعالى:﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾، فهذا أيضًا نداءٌ، لكنه ليس كندائه الأول، بل هذا مما يقدر عليه البشر، فهو من العاديات، والثاني من التعبديات التي لا يقدر عليها إلا رب البشر، وكلى النداءين خرجا من زكريا عليه السلام، وشتان الفرق بينهما.

الاستدلال الثاني على الفرق بين الدعاء لغة وشرعًا :

ويتضح الفرق أيضًا بالمقارنة بين الآيتين التاليتين..

قال تعالى: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾

قال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾

ففي الآية الأولى: سمى الله الطلب من الرسول وندائه في حياته دعاءً، وكذلك سمى طلب الناس من بعضها البعض دعاءً، وأمرنا ألا نساوي بينهم.

– جاء في تفسير الجلالين للسيوطي والمحلي:" { لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَاءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُمْ بَعْضاً } بأن تقولوا يا محمد، بل قولوا : يا نبيَّ الله ، يا رسول الله ، في لِينٍ وتواضعٍ وخفضِ صَوْت".اهـ

وفي الآية الثانية: أمرنا الله بأن لا ندعو معه أحدًا قط، في الوقت الذي أمرنا أن ندعو الرسول بتواضع ولين، فهل بين الآيتين تعارض؟ وهل معنى الدعاء في الآية الأولى كمعناه في الآية الثانية؟!

بالقطع لا، فالدعاء في الآية الأولى يُراد به معناه اللغوي، وفي الثانية يراد به معناه الشرعي، وهو نفسه الفرق بين الدعاء وطلب الدعاء.

الاستدلال الثالث على الفرق بين الدعاء لغة وشرعًا :

ويتضح الفرق أيضًا بتأمل الآيتين التاليتين..

قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

فلو كان طلب الدعاء في الآية الأولى عبادة لكان طلبه من موسى عليه السلام شركًا بموجب الآية الثانية..مما يؤكد أنَّ طلب الدعاء من العاديات بخلاف الدعاء الشرعي فهو من التعبديات.

المسألة الخامسة : حقيقة شرك الدعاء.

قال رسول الله :"الدعاء هو العبادة"، والعبادة تُمثل شق توحيد الإلوهية المستلزم لشق توحيد الربوبية، ومن هنا كان الواقع في دعاء غير الله خارقًا لنوعي التوحيد، واقعًا في شركين معًا، لا في شركٍ واحد، بموجب اللزوم بين التوحيدين.

فدعاء غير الله خرق للإلوهية:

لأن الدعاء ينطبق عليه تعريف العبادة كمفردات، وصفة الخضوع المطلق لا تنفك عنه أبدًا، فالداعي غير الله خضع لهذا الغير بجنسٍ من الخضوع لا يكون إلا لله شاء أم أبى، وبذلك يكون صَرَفَ العبادة لغير الله، وهذا خرقٌ لتوحيد الإلوهية، وتشريكٌ في العبادة.

ودعاء غير الله خرق للربوبية:

لأن دعاء غير الله يلزم منه لازمًا ذاتيًا ضمنيًا أن يعتقد الداعي فيمن دعاه أنَّ له سمعًا مطلقًا، وعلمًا مطلقًا، وقدرة مطلقة، وتدبيرًا في الكون، وقد تقدم معنا الاستدل على اختصاص الرب سبحانه بهذه الصفات الأربع، وهذه الأربعة هي أساس المناط الكفري في شرك الدعاء، فلما اعتقد الداعي أنَّ للميت علمًا يحيط به في أي مكانٍ كان، وسمعًا يُدرك به حاله في أي زمان، وأن قدرته المطلقة تمكنه من فعل أي شيء، استغاث به في الكربات، ودعاه في الملمات، وهذا خرقٌ لتوحيد الربوبية، وشركٌ ثانٍ في صفات الربَّ سبحانه، بالإضافة إلى شركه المتقدم في العبادة، فهو شركٌ فوق شرك، لذا قال تعالى عن أعمال الكافر:﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾.

الوقفة الرابعة:

صور طلب الدعاء من الأموات وحكمها .

يظن البعض أنَّ مسألة طلب الدعاء من الأموات على صورةٍ واحدة، فترى بعضهم يحكم بشركيتها قولًا واحدًا، وغيرهم يحكم ببدعيتها قولًا واحدًا، ومن هنا نشأ النزاع؛ إذ الصورة المتقررة في ذهن المُكفر لها تختلف كليةً عن الصورة المتقررةِ في ذهن الحاكمِ ببدعيتها، والاختلاف في التصور ينشأ عنه ولابد الاختلاف في الحكم، والقاعدة على أنّ الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره .. وفي هذه الوقفة سأحاول عرض جميع صور المسألة وتصوراتها، مع تقرير الحكم الخاص بكل صورة بناءً على المفهوم المتقدم للتوحيد وشقيه، والعبادة ونوعيها؛ لأنه هو الأصل والمرجعية؛ خاصة مع التشرذم الحادث في المسألة، والاختلاف القائم في فهم كلام العلماء .. وقد وضعت المسألة على هيئة صورٍ؛ لرؤيتي دومًا أنَّ طرفًا يتكلم في صورة، والآخر ينازعه في صورة أخرى، فأردتُ حصر الكلام علي الصورة محل النزاع.

الصورة الأولى :

وهي طلب الدعاء من الميت **عن بعد**، كأن تكون في الصحراء وتقول: يانبي الله ادعُ الله لي، فهذه الصورة من الشرك الأكبر؛ لخرقها لتوحيد الربوبية لزومًا قطعيًا، من باب عدم إفراد الله بالسمع المطلق والعلم المطلق؛ إذ تستلزم أنَّ الميتَ سميعٌ عليم..علمًا بأنها لا تخرق الإلوهية؛ لأن نفس الطلب ليس عبادة، وهذا لا يعني خروجها عن دائرة الشرك الأكبر، والمحصلة إنها شركٌ في الربوبية لا في الإلوهية.

قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

الصورة الثانية:

وهي طلب الدعاء من الميت **عن قرب** مع اعتقاد الطالب أنَّ الميت يسمع جميع الملايين الذين يطلبون منه ذلك في آنٍ واحد، ويعلم طلباتهم جميعًا في نفس الآن بجميع اللغات المختلفة التي لم يكُ يعلمها في حياته!، فهذه الصورة أيضًا من الشرك الأكبر كالصورة الأولى تمامًا؛ لأنه يلزم منها قطعًا خرق توحيد الربوبية من جهة السمع والعلم المطلقين، وإن كانت لا تخرق توحيد الإلوهية، لكن الشرك لا يلزم لحدوثه خرق التوحيدين معًا، بل خرق أحدهما كافٍ في الخروج من الملة.

قال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

- قال الدهلوي :" نداء الأموات من بعيد أو من قريب للدعاء إشراك في العلم ".اهـ رسالة تقوية الإيمان.

الصورة الثالثة:

وهي طلب الدعاء من الميت **عن قرب**، لكنه طَلَبَ هذا الطلب في سِرِّهِ، ولم يجهر به صوته، كمن يذهبون إلى زيارة قبر النبي اليوم في المدينة المنورة، وتراهم يهمسون بذلك في سرهم، فهذه الصورة من الشرك الأكبر؛ لخرقها ربوبية الله، إذ يلزم منها قطعًا بدلالة ضمنية أنَّ النبي يعلم الغيب، ويعلم ما تخفي صدور الناس.

قال تعالى: ﴿ إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾

وقال تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾

وقال تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا **إِلَّا** مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [(1)]

والشرك في هذه الصورة ليس شركًا في الإلوهية؛ لأن نفس الطلب ليس عبادة كما قدّمنا، بل هو شرك في الربوبية؛ لأنه تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص ربوبية الله، وقد مر معنا أنه لا يلزم التسوية في التوحيدين لوقوع الشرك، بل يقع بوقوع التسوية في أحدهما .

الصورة الرابعة:

وهي طلب الدعاء من الميت **عن قرب**، لكن الطالب لما خَشِيَ أن لا يستجيب الميت لطلبه، قرر أن يطلبه على وجه الخضوع المطلق والذل المطلق؛ كي يجيب الميت طلبه ويدعو له، فرفع الطالب يديه إلى السماء كما يرفعها عند دعاء الله، وطلب من الميت في تضرع ورهبةٍ ورغبة، وذلٍ كامل وافتقارٍ مطلق، وإخلاصٍ تام كما يطلب من الله؛ ظنًا منه أنَّه كلما أخلص فى طلبه من الميت وفي توجهه إليه ورجائه له، كلما استجاب له الميت، كما هو الشأن في الإخلاص لله، فالميت عنده لا يَرُدُّ سائلًا طلب منه بإخلاصٍ، ولا يرفض طَلَبًا أتاه على وجه الخضوع والتذلل التامَّين..وهذه الصورة على هذا الوجه لا شك أنها من الشرك الأكبر الخارق للإلوهية، لاشتمالها على معاني العبادة القلبية كالخضوع والذل والافتقار والرجاء والرغبة، وإن كانت حقيقة الطلب مجردة في ذاتها ليست عبادة، ولا تستلزم هذه المعاني ولا تشملها كما قدمنا، لكن الطالب لما أراد أن يستجيب الميت لطلبه أضاف إلى الطلب المجرد معاني العبادة، وهذا كالأكل مثلًا فهو في الأصل فعلٌ عادي لا يشمل على العبادة كمعنى، لكن قد يفعله

---

(1) - نقل أبو حيان في تفسيره عن ابن عباس أن الاستثناء في هذه الآية منقطع من غير جنس المستثنى منه، و (إلا) بمعنى لكن، وإلى نفس هذا القول ذهب عدد من الأئمة؛ قال الزركشي في البرهان:" وتُقدر (إلا) بـ (لكن) كقوله تعالى: لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ..وكذلك قوله: إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ".انتهى كلامه، ومن ثَمَّ فإن معنى الآية عندهم : لكن مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فإن الله يجعل مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا أي ملائكة ترصده وتحفظه، ولا يكون معنى الآية عندهم إن الله لَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا الرسل الذين ارتضاهم كما يفهمه البعض، ويُراد من تفسيرهم صيانة جناب التوحيد، بإفراد الله بعلم الغيب، وأن الرسل لا تعلمه قط ، دَلَّ عليه قوله تعالى:" وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ".

الإنسان على وجه التعبد، فيضيف هو إلى نفس الفعل معاني العبادة، إضافه ذاتيه لم يكن الفعل يستلزمها أو يشملها، فيتحول الفعل العادي بها إلى فعل تعبدي، وذاك ما حدث في هذه الصورة.

من جهةٍ أخرى، إنَّ الطلبَ على هذا الوجه فيه تشبيه بين الخالق والمخلوق؛ لأنَّه طَلَبَ منه بنفس الطريقة التي يطلب بها من الله، وبنفس الهيئة، وبنفس الشعور، وهذا شرك تشبيه، وينطبق عليه معنى التسوية الشركية.

- قال ابن تيمية:" وكذلك الشرك بالمقبورين من دعائهم والتضرع إليهم والرغبة إليهم ونحو ذلك فإذا كان النبي قد نهى عن الصلاة التي تتضمن الدعاء لله وحده خالصا عند القبور لئلا يفضي ذلك إلى نوع من الشرك بربهم فكيف إذا وجد ما هو عين الشرك من الرغبة إليهم، سواء طلب منهم قضاء الحاجات أو طلب منهم أن يطلبوا ذلك من الله".اهـ اقتضاء الصراط المستقيم.

- وقال عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ :" ولا ريب أن الاستشفاع بالموتى يتضمن أنواعاً من العبادة: سؤال غير الله، وإنزال الحوائج به من دون الله، ورجائه، والرغبة إليه، والإقبال عليه بالقلب والوجه والجوارح واللسان.. وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله" . اهـ القول الفصل النفيس.

وهذه الصورة لا يتصور خروجها على هذا الوجه إلا من عبيد القبور كالصوفية والشيعة ومن نحا نحوهم، ويبدو من كلام ابن تيمية وعبدالرحمن بن حسن المتقدم أنَّها نفس الصورة الحادثة في زمانهم، وذلك نظرًا للغلو العارم في أصحاب القبور في هذه الأزمنة، والذي ربما يزيد عن غلو أهل زماننا ..وحاصل هذه الصورة أنها شركٌ في الإلوهية، وإن زاد الطالب اعتقاده السمع أو العلم المطلق فقد خرق الربوبية كذلك.

الصورة الخامسة :

وهى متعلقة بالشفاعة الشركية، وستأتي وقفة خاصة معها .

الصورة السادسة :

وهي طلب الدعاء من الميت **عن قرب**، لكن الطالب طلب ذلك بصوتٍ عالٍ جهور، ولم يؤدِ هذا الطلب على وجه العبادة كالصورة الرابعة، بل قالها ككلمة مجردة كما يقولها للأحياء: ادعُ الله لى، دون تضرعٍ وخضوع وذل، أو استشعار منه بالرغبة والافتقار والإخلاص، بل كأنَّه يتعامل مع شخصٍ حي تمامًا بتمام، وقد طلبَ بصوتٍ جهور؛ نظرًا لترجيحه أنَّ الأموات يسمعون في قبورهم –وهو مذهب ابن تيمية وابن القيم[(1)] والشنقيطي– بقوة ليست أكبر من قوة سماعهم في الدنيا، فهو لا يعتقد أنَّ الميت

(1) - لن يكون لنا وقفة مع تحرير مسألة سماع الأموات؛ لأن المسألة في النهاية خلافية، والانتصار لأحد القولين هو في الأخير اجتهادٌ شخصي .. والغلط كل الغلط بناء الحكم بالتكفير على اجتهادك الشخصي بنفي السماع، في الوقت الذي اجتهد فيه غيرك وترجح له غير قولك.

يسمع جميع الملايين في آن واحد، ويعلم طلباتهم في نفس الوقت، بل قدرة الميت عنده هي نفسها أثناء حياته.. وقبل الكلام عن حكم هذه الصورة سأورد مثالين لها؛ تقريبًا لصورتها في الذهن:

المثال الأول: مجموعة أشخاص يُغسِّلون ميتًا، وأثناء الغُسْلِ قال أحدهم للميت: ادعُ الله لي، كما يقولها للحي؛ ظنًا منه أن هذا الميت يسمعه، بل ولما ظنَّ أن ضجيج المغسلين قد يشوش على سماع الميت، قال لهم: اصمتوا جميعًا كي يسمعني جيدًا .

المثال الثاني: وهو تلقين الأموات، بأن ذَهَبَ أحدهم إلى قبر ميتٍ بعد دفنه مباشرة، وطلب منه بصوتٍ جهور قائلًا: إن سُئلت من ربك، فقل : الله، وإن سُئلت عن دينك، فقل: الإسلام، وإن سُئلت عن نبيك، فقل محمد..ففي هذه الصورة طلب الطالب من الميت أن يجيب بكذا ..فهل يكفر المُلَقِّن لأنه طلب من الميت ذلك؟ مع مرعاة عدم اعتقاده في الميت أي اعتقادٍ زائد، لذا يتكلم بصوتٍ عالٍ، بل ولربما إذا تكلم أحدٌ بجواره نَهَرَهُ ؛كي يسمعه الميت بوضوح .. هذه أيضًا صورة تقريبية للمسألة، ولنا وقفة مطولة بعد قليل مع حكم التلقين خاصة.

حكم الصورة السادسة:

لقد حدث خلاف بين العلماء المتقدمين في حكم هذه الصورة، فمنهم من أجازها، ومنهم من رأى أنها بدعة، وسننقل كلام كلى الفريقين بعد قليل .. والذي أراه أنها بدعة واضحة، ومن أجازها من الأقدمين فقد أخطأ.

لماذا هذه الصورة ليست من الشرك الأكبر؟؟

الجواب:بناء على كل الأصول العامة المتقدمة فقد خرجت هذه الصورة من الشرك الأكبر جملة وتفصيلًا.

1- فأما خروجها من شرك الربوبية فظاهر؛ وذلك لأن الطالب لا يعتقد في الميت شيئًا زائدًا عن اعتقاده فيه أثناء حياته، فهو لم يعتقد فيه سمعًا مطلقًا، ولا علمًا مطلقًا زاد عن علمه أثناء حياته، ولا هو عنده يعلم الغيب، ولا له قدرة مطلقة، بل هو شخصٌ له نفس قدرته في الدنيا، وترجيحه لسماع الاموات يعني أنه لم يعطِ للميت سمعًا وعلمًا زائدًا، بل أعطاه ما قرره الشارع، وكذلك لا يلزم من هذا الطلب أى اعتقاد فاسدٍ يهدم الربوبية كالتصرف والتدبير في الكون كما هو الحال في طلب إصلاح سيارة[(1)]..وبهذا لم يحدث خرق الربوبية.

2- وكذلك لم يحدث خرق في الإلوهية والعبادة؛ لأن أصل هذا الطلب هو فعل عادي كما قدمنا، وصفة العبادة كمعنى وهي غاية الخضوع منفكة عنه أصلًا، ولا تلحق به إلا بصناعة من الطالب، كما

---

(1) - سيأتي بعد قليل الفرق بين جنس طلب الدعاء من الميت وبين جنس طلب إصلاح سيارة من الميت.

يتحول الأكل أو الابتسامة من عادة إلى عبادة بصناعتك ورغبتك، وهذا ما لم يحدث في هذه الصورة؛ لأن الطالب قالها ككلمة عادية كما يقولها للأحياء، بنفس الصيغة، وبنفس الهيئة، وبنفس الدرجة.

3–وقد تقدم معنا أنَّ هذا الطلب لا ينطبق عليه التعريف الشرعي للدعاء، وذكرنا أسباب ذلك.

وبالتالي لم يتبقَ أي مناط للتكفير بهذه الصورة، لا في الإلوهية ولا في الربوبية.

4–وقد تقدم معنا كذلك أنه بانتفاء اللازم ينتفي الملزوم، وههنا يجب أن ينتفى الملزوم وهو الحكم بكفرها؛ إذ المخالف يعتقد أنها شركٌ؛ لأنه يلزم منها كذا وكذا، فلما انتفت كل هذه اللوازم الذاتية والعرضية، فقد وجب انتفاء الملزوم.

5–إذ لم يحدث أي نوع من أنواع التسوية بين الله والميت، وأصل الشرك كما قدّمنا قائمٌ على التسوية.

تنويـــــــه هـــــــام :

إن طلب الدعاء من الميت بهذه الصوره هو أمرٌ افتراضي، لا يحدث في الواقع، لأن الذي يحدث من الناس عامة، ومن القبوريين خاصة، في زماننا هذا وفي الأزمنة المتقدمة، هو طلب الدعاء من الميت على الأوجه الأربعة الشركية المتقدمة، وهذا بخلاف طلبهم الشفاعة من الأموات على الوجه الشركي أيضًا كما سيأتي بيانه، وقد جرت العادة أنه لا يَقْدم على مثل هذا الطلب إلا جهال العوام، وهؤلاء دأبهم الشرك، بل وما قَدِمُوا على مثل هذا الطلب إلا لاعتقاداتهم الخرافية الشركية في الأموات، حتى إنك لا تكاد تجد أحدًا في الواقع يطلب من الأموات الدعاء إلا وهو واقعٌ أصلًا في دعائهم والاستغاثة بهم، وهذا شركٌ أكبر لا تفصيل فيه .

سبب الخلاف في مسألة طلب الدعاء عامة:

وسبب الخلاف من وجهة نظري؛ هو اختلاف تصورات المسألة، فمن نظر إلى الواقع وفهمه فهمًا جيدًا، حَكَمَ بكفر الطالبين لمثل هذه الطلبات، ويتضح ذلك بتأمل المناطات الشركية التي ذكرها المُكَفِّرُون، أما مَنْ حكم ببدعيتها فهو بمعزلٍ عن الواقع؛ لأنه قد حكم عليها كمسألة نظرية بناءً على صورة ذهنية تجريدية في العقل؛ وهنا محل الملام عليه، لأنه تكلم فيما لم يقع، وبمعزل عن الواقع، مما قد يؤدي إلى الابتلاء والاختلاف، ولا يَحْسُن في هذا المقام أنْ يقال : إنَّ هذا تأصيلٌ، فإن السلف قد كرهوا ذلك.

وقفة انصاف بين المُكَفِّرين والمُبَدِّعين:

ومن هنا تصح رؤية المكفرين بالمسألة مادمت مقيدةً بالواقع العمليِ، وكذلك تصح رؤية المُبَدِّعِين لها مادمت مقيدةً بالتأصيل التنظيري.

وفي نفس الوقت فإنَّ رؤية المكفرين تكون خطأً إن تجاوزوا وحكموا بكفر الصورة الخياليةِ السادسة، وكذلك تكون رؤية المُبَدِّعِين خطأً إن حكموا بتبديع الصور الخمس الأولى للمسألة مع الشرك الظاهر فيهم، ولكن هذا مالم يفعلوه جميعًا سلفًا وخلفًا.

الوقفة الخامسة:

التلقين نظير طلب الدعاء.

لا شك أنَّ تلقين المحتضر قبل موته سُنَّة لحديث النبي:" لقنوا موتاكم لا إله إلا الله "، لكن ماذا عن تلقين الميت بعد دفنه، كأن يقوم أحدٌ من أهل المقبور على قبره، ويُملي عليه أسئلة القبر، ويطلب منه الإجابة عليها، وهذه العادة لازالت موجودةً في بعض قرى الديار المصرية إلى يومنا هذا..علمًا بأن المُلقن لا يعتقد في الميت أي صفة من صفات الربوبية كالسمع المطلق مثلًا، لذا يطلب من الميت بصوتٍ عالٍ مرتفع، في ظل سكوت الناس من حوله..وهذه الصورة أشبه بالصورة السادسة من صور طلب الدعاء من الميت، إن لم تكن نظيرتها في البحث؟

والجواب: إنَّ حكم تلقين الميت بعد دفنه حَصَلَ فيه خلافٌ بين الأئمة، وهو نفس الخلاف الحادث في الصورة الأخيرة من طلب الدعاء، فقد ذهب بعض الأئمة إلى جوازه واستحبابه، وبعضهم إلى تبديعه .

علماء أجازوا التلقين:

أولًا: من الشافعية :

- قال النووي:" قال جماعات من أصحابنا يستحب تلقين الميت عقب دفنه.. فهذا التلقين عندهم مستحب ممن نص علي استحبابه القاضي حسين والمتولي والشيخ نصر المقدسي والرافعي وغيرهم ونقله القاضي حسين عن أصحابنا مطلقا، وسئل الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله عنه فقال التلقين هو الذى نختاره ونعمل به قال ورويناا فيه حديثا من حديث أبي امامة ليس إسناده بالقائم لكن اعتضد بشواهد وبعمل أهل الشام قديما".اهـ المجموع

- وقال الخطيب الشربيني:" وَيُسَنُّ تَلْقِينُ الْمَيِّتِ الْمُكَلَّفِ بَعْدَ الدَّفْنِ.. وَلَمْ تَزَلْ النَّاسُ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ مِنْ الْعَصْرِ الْأَوَّلِ فِي زَمَنِ مَنْ يُقْتَدَى بِهِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ } وَأَحْوَجُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ إلَى التَّذْكِيرِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ، وَيَقْعُدُ الْمُلَقِّنُ عِنْدَ رَأْسِ الْقَبْرِ ، أَمَّا غَيْرُ الْمُكَلَّفِ وَهُوَ الطِّفْلُ وَنَحْوُهُ مِمَّنْ لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُ تَكْلِيفٌ فَلَا يُسَنُّ تَلْقِينُهُ".اهـ مغني المحتاج

ثانيًا: من الحنفية :

- قال ابن الهمام:" وَأَمَّا التَّلْقِينُ بَعْدَ الْمَوْتِ وَهُوَ فِي الْقَبْرِ فَقِيلَ يُفْعَلُ لِحَقِيقَةِ مَا رَوَيْنَا ، وَنُسِبَ إلَى أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَخِلَافُهُ إلَى الْمُعْتَزِلَةِ ، وَقِيلَ لَا يُؤْمَرُ بِهِ وَلَا يُنْهَى عَنْهُ".اهـ فتح القدير.

ثالثًا: من المالكية:

أجاز الإمام القرطبي صاحب التفسير المشهور التلقين وأفرد له باباً في كتابه التذكرة بأحوال الموتى والآخرة تحت عنوان: باب ما جاء في تلقين الإنسان بعد موته، وقال :" أن العمل جرى في قرطبة على تلقين الميت".اهـ

رابعًا: من الحنابلة:

- قال المرداوي :" يُسْتَحَبُّ تَلْقِينُ الْمَيِّتِ بَعْدَ دَفْنِهِ عِنْدَ أَكْثَرِ الْأَصْحَابِ قَالَ فِي الْفُرُوعِ : اسْتَحَبَّهُ الْأَكْثَرُ قَالَ فِي مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ : اخْتَارَهُ الْقَاضِي ، وَأَصْحَابُهُ ، وَأَكْثَرُنَا وَجَزَمَ بِهِ فِي الْمُسْتَوْعِبِ ، وَالرِّعَايَتَيْنِ ، وَالْحَاوِيَيْنِ ، وَمُخْتَصَرِ ابْنِ تَمِيمٍ ، وَغَيْرِهِمْ فَيَجْلِسُ الْمُلَقِّنُ عِنْدَ رَأْسِهِ ، وَقَالَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ : تَلْقِينُهُ بَعْدَ دَفْنِهِ مُبَاحٌ عِنْدَ أَحْمَدَ ".اهـ الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف

- وجاء في الفتاوى الكبرى لابن تيمية:" سئل : مفتي الأنام بقية السلف الكرام تقي الدين بقية المجتهدين أثابه الله وأحسن إليه عن تلقين الميت في قبره بعد الفراغ من دفنه هل صح فيه حديث عن النبي صلى الله عليه و سلم أو عن صحابته ؟ وهل إذا لم يكن فيه شيء يجوز فعله ؟ أم لا ؟

أجاب : هذا التلقين المذكور قد نقل عن طائفة من الصحابة : أنهم أمروا به كأبي أمامه الباهلي وغيره وروي فيه حديث عن النبي صلى الله عليه و سلم لكنه مما لا يحكم بصحته ولم يكن كثير من الصحابة يفعل ذلك فلهذا قال الإمام أحمد وغيره من العلماء : أن هذا التلقين لا بأس به فرخصوا فيه ولم يأمروا به واستحبه طائفة من أصحاب الشافعي وأحمد وكره طائفة من العلماء من أصحاب مالك وغيرهم ..وقد ثبت أن المقبور يسأل ويمتحن وأنه يؤمر بالدعاء له فلهذا قيل : أن التلقين ينفعه **فإن الميت يسمع النداء** كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال :أنه ليسمع قرع نعالهم ".اهـ

- وجاء أيضًا في الفتاوى الكبرى:" سئل : هل يجب تلقين الميت بعد دفنه ؟ أم لا ..الجواب : تلقينه بعد موته ليس واجبا بالإجماع ولا كان من عمل المسلمين المشهور بينهم على عهد النبي صلى الله عليه و سلم وخلفائه بل ذلك مأثور عن طائفة من الصحابة كأبي أمامة وواثلة بن الأسقع فمن الأئمة من رخص فيه كالإمام أحمد وقد استحبه طائفة من أصحابه وأصحاب الشافعي ومن العلماء من يكرهه لاعتقاده أنه بدعة فالأقوال فيه ثلاثة : الاستحباب والكراهة **والإباحة وهذا أعدل الأقوال** ".اهـ

قال ابن القيم:" ويدل على هذا أيضا ما جرى عليه عمل الناس قديما وإلى الآن من تلقين الميت في قبره **ولولا أنه يسمع ذلك وينتفع به لم يكن فيه فائدة** وكان عبثا وقد سئل عنه الإمام أحمد رحمه الله فاستحسنه واحتج عليه بالعمل".اهـ كتاب الروح.

علماء بَدَّعوا التلقين:

قال العز بن عبد السلام في فتاويه: "لم يصح في التلقين شيء وهو بدعة".اهـ

وقال البُجَيْرَمِي:" ذَهَبَ جُمْهُورُ الْأُمَّةِ إلَى أَنَّ التَّلْقِينَ بِدْعَةٌ وَآخِرُ مَنْ أَفْتَى بِذَلِكَ الْعِزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ وَإِنَّمَا اسْتَحْسَنَهُ ابْنُ الصَّلَاحِ وَتَبِعَهُ النَّوَوِيُّ نَظَرًا إلَى أَنَّ الْحَدِيثَ الضَّعِيفَ يُعْمَلُ بِهِ فِي فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ".اهـ حاشية البجيرمي على الخطيب.

قلتُ: وادعاء البُجَيْرَمِي أن تبديع التلقين مذهب الجمهور فيه نظر، وإن كان الذي يظهر لي أن التلقين بعد الدفن أقرب للمنع وإنْ نَسَبَهُ بعضهم للصحابة وللإمام أحمد؛ وذلك لعدم فعل النبي له.

وقفة: بين التلقين وطلب الدعاء:

1- لا فرق بين صورة التلقين، وبين الصورة البدعية لطلب الدعاء من الميت؛ لأنها خرجت نفس مخرجها وهيئتها في الظاهر والباطن.

2- والمطلوب في كلى الحالتين من الطلبات العادية لا التعبدية، فالأول طَلَبٌ للدعاء، والثاني طَلَبٌ لإجابته على بعض الأسئلة، وكلاهما يجوز طلبه من الأحياء، وبالتالي فإنَّ طَلَبَهم من الميت لا شرك فيه؛ لانفكاك العبادة كمعنى عن ذات الطلب.

3-ومن هنا لا يصح أبدًا أن يُقال : إنَّ كل طلب من الميت هو كفر، كما يزعم المُكَفِّرُونَ.

4- مع مرعاة أن التلقين يجوز أن نسميه دعاءً؛ لأن الدعاء هو النداء، والتلقين يحتوي على نداءٍ، فالمُلَقِن يقول يافلان إنْ سُئلت فقل كذا، لذا قال ابن تيمية فيما نقلنا أعلاه:" **أن التلقين ينفعه فإن الميت يسمع النداء**".اهـ ، وصورة طلب الدعاء ينطبق عليها أيضًا اسم الدعاء من نفس الباب اللغوي؛ كونها تشمل نداءً.

5-وبهذا يتضح جليًا أنَّ الطلب العادي من الميت، إنْ كان من شركٍ فيه فهو على وجه اللزوم، لا لذات الطلب؛ لانفكاك صفة الخضوع المطلق عنه، وههنا لا توجد أية لوازم شركية.

6- وأخيرًا: إنَّ مَنْ يُكَفِّر بطلب الدعاء يلزمه لزومًا بينًا بالمعنى الأعم التكفير بالتلقين، ومن ثَمَّ تكفير جملة علماء السلف!

الوقفة السادسة:

حكم نَدِاءُ الجماداتِ والمَغِيبِاتِ

وعلاقته بموضوعنا.

ومثال نداء المَغِيبِاتِ: قولنا في تشهد الصلاة السلام عليك يارسول الله، وكذلك قول المرأة التي وقعت في أسر الروم: "وامعتصماه" ، والمعتصم بعيدٌ عنها.

ومثال نداء الجمادات : قول الرسول للهلال كما في مسند أحمد:"ربي وربك الله"، وأيضًا قوله للأرض كما في مستدرك الحاكم:"يا أرض ربي وربك الله"، ومثاله كذلك كلام عمر بن الخطاب للحجر الأسود، ومنه قول النبي لجبل أحد:"اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ"كما في الصحيحين.

ومثله خطاب الشعراء للجمادات، ومنه قول امرؤ القيس مخاطبًا الليل :

أَلا أيُّها الليلُ الطويل ألا انجلِ ** بِصُبْحٍ وما الإصْباحُ منكَ بأَمْثَلِ**

ومثله قول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

أَمطِري لُؤلُؤاً جِبالَ سَرَنديبَ[(1)] ** وَفيضي آبار تَكرورَ [(2)] تِبْرا [(3)]**

فهل هذه الصور من نداء الجمادات والغائبين يقع فيها الشرك مع أنَّ المنادى قد يكون بعيدًا ولا يسمع، أو قد يكون الطلب مما لا يقدر عليه إلا الله كطلب الشافعي من الجبال أن تمطر؟!

الجواب: لا، فإن النداء الوارد في هذه الصور هو لاستحضار معنًى معين في الذهن، بالتقريب والتخييل.

– قال ابن تيمية :" وقوله يا محمد يا نبي الله هذا وأمثاله نداء يطلب به استحضار المنادى في القلب فيخاطب لشهوده بالقلب كما يقول المصلي السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته والإنسان يفعل مثل هذا كثيرا يخاطب من يتصوره في نفسه إن لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب ". اهـ اقتضاء الصراط المستقيم.

---

(1)- سرنديب : هي دولة سيرلانكا حاليًا.
(2)- تكرور : هي مدينة على نهر السنغال الحالي، وكانت عاصمة لمملكة تكرور القديمة.
(3)- التِّبْر: هو الذهب الخالص.

وهذه الأمور لا يلزم منها اعتقادٌ في المنادى، فلا يقول عاقلٌ في دنيا الناسِ إنَّ عمر بن الخطاب كان يعتقدُ أنَّ الحجرَ الأسودَ يسمعه ويعلم بكلامه، أو أنَّ النبي كان يعتقدُ أنَّ الهلالَ يسمعه ويَعْلمه، بل هو مجرد نداء خالٍ عن الاعتقادات؛ لاستحضار معانٍ معينة، وهذا ما أسميه بالنداء المنفك، لانفكاكه عن معاني الربوبية والعبادة.

- قال الكشميري :" إن ألفاظ الخطاب في لسان العرب لاستحضار المخاطب تخييلاً ، ولا يجب علم المخاطب ، كما يقال : واجبلاه واويلاه يا زيداه للميت ، فعلى هذا لا يدار الخطاب على حالة الحياة ، وفي المفصل : المنادى ما يدخل عليه لفظ النداء ".اهـ العرف الشذى.

فنداء الجمادات والمغيبات قد يُطلق ويُراد به استحضار معنى الحب والتضحية؛ مثل قولنا:"فداك أبي وأمي يارسول الله"

وقد يُراد به استحضار معنى النُّدبة؛ كقول المرأة:"وامعتصماه"، والندبة نداء المُتَفَجّعِ، وتعني التحسر على ذهاب المنادى عليه، وفقدانه، وتمني وجوده، وقد ظن بعض الجهال أنَّ قول هذه المرأة من الشرك الأكبر؛ بعلة نداء الغائب المستلزم لهدم الربوبية، وهذا خطأ، فالظاهر أن المرأة لم تكُ تعتقد أنَّ المعتصم يسمعها أصلًا، بل خرج منها على وجه الحسرة؛ لفقدانها المعتصم، وهو إسلوبٌ عربي بلاغي.

ومثله قول فاطمة رضي الله عنها لما مات النبي: "وأبتاه أجاب ربًا دعاه".اهـ ،

ومثله كذلك قول أبو بكر الصديق كما في مسند أحمد عند موت النبي:"وانبياة واخليلاه واصفياه".اهـ،

وكذلك مثله قول عائشة رضي الله عنها لما مات عثمان بن عفان:"واعثماناه".اهـ

فكل هذه الأنواع من النداءات، وإن انطبق عليه اسم الدعاء، وإن كان ظاهرها نداء الغائب، إلا إنها تخرج عن ماهية الشرك؛ لفقدانها المعاني الشركية، فهي نداءاتٌ منفكة.

قال ابن الشجري- ت542هـ- :" وقد يوجّه النداء إلى **من لم يقصد إسماعه، وذلك إلى غائب** تكتب إليه، تتشوّقه أو تمدحه أو تذمّه، كقولك فى مكتوبك: يا زيد، جمع الله بينى وبينك، ويا محمد، ما أكرمك، ويا خالد ما ألأمك، أو **تقول لميّت** تندبه: يا زيد، ما أجلّ مصيبتنا بفقدك، **ويا عبد الله، لقد هدّنا هلكك**، غير أنّ أكثر العرب يخالفون بين اللّفظ بالنّدبة، واللفظ بالنّداء، فيجعلون «وا» مكان «يا» ويلحقون آخر الاسم ألفا، فإذا سكتوا ألحقوها هاء ساكنة، كقولك: وا سيّد المسلميناه، وا أمير المؤمنيناه".اهـ أمالي ابن الشجري.

وقد يُراد بنداء الجمادات والمغيبات استحضار معنى التوحيد، مثل نداء النبي للأرض والهلال، ومثل كلام عمر بن الخطاب للحجر الأسود؛ فكلامه رضي الله عنه خرج على وجه التذكير لنفسه وللأمة، باستحضار معنى معين في ذهنه، وهو البراءة من تعظيم غير الله.

وقد يخرج النداء مخرج المجاز؛ مثل نداء الشعراء للجبال والشمس والقمر، ومنه طلب امرؤ القيس المتقدم من الليل أن ينجلي، ولعله لاستحضار معنى التمنِّي لزوال الهموم بعد أن تزاحمت المصائب عليه، دَلَّ عليه الأبيات التي قبله:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُوْلَهُ ** عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الهُمُوْمِ لِيَبْتَلِي.**

وعلى هذا الوجه يتخرج طلب الشافعي المتقدم من الجبال أن تمطر ذهبًا، وهو لاستحضار معنى القناعة والرضا بما قَسَمَ الله، والزهد في رغد الدنيا، دَلَّ على هذا البيت الذي يليه:

أَنا إنْ عِشْتُ لَسْتُ أَعْدَمُ قوتاً ** وَإذا مِتُّ لَسْتُ أَعْدَمُ قَبْرا**

وهو من باب المجاز العقلي الإسنادي، الذي يُنْسَبُ فيه الفعل إلى غير فاعله، والفاعل الحقيقي غيره، فالمنادى تعريفه : هو المطلوب إقباله، حقيقة لا مجازًا، وفي مثل هذه الصور لا يُراد الطلب حقيقة، بل مجازًا، وإلا فانجلاء الليل حقيقة لا يقدر عليه إلا الله وحده، وكذلك إنزال المطر لا يقدر عليه إلا الله، لا الجبال ولا غيرها، والكلام يطول في مبحث المجاز ووجوده في اللغة والقرآن، خاصة أن ثِمَارَهُ كثيرة، كمسألتنا هذه، ولنا وقفة مطولة معه في مباحث الحاكمية.

- قال السهسواني:" المانعون لنداء الميت والجماد وكذا الغائب إنما يمنعونه بشرطين:

الأول: أن يكون النداء حقيقياً لا مجازياً.

والثاني: أن يقصد ويطلب به من المنادى ما لا يقدر عليه إلا الله من جلب النفع وكشف الضر. مثلاً يقال: يا سيدي فلان اشف مريضي وارزقني ولداً .. وأما النداء المجازي فلا يمنعه أحد".اه صيانة الإنسان عن وسوسة دحلان.

وقفة : بين نداء الجمادات ونداء الأموات:

مما سبق يتبين لنا:

1- أنَّه ليس كل نداء عبادة، فالنداء المنفك الذي تنفصل عنه معاني الربوبية والإلوهية، لا كفر فيه ولا شرك.

2- فإن كان نداء الحجارة التي لا تسمع ولا تعلم إذا انفك عنه معاني العبادة، لا يكفر فاعله، فما بالنا بمن طلب من الميت الدعاء مع ترجيح بعض العلماء أن الميت يسمع ويعلم ما نقول..أليس من باب أولى ألا يَكْفُرُ إذا انفصل نداؤه عن معاني العبادة أيضًا؟..(وهي الصورة السادسة)

3- وإن كان طلب الشافعي من الجبال خرج من الشرك –وهو مما لا يقدر عليه إلا الله- لانفكاكه عن المعاني التعبدية بقرينة المجاز..أفليس من باب أولى أن يخرج طلب الدعاء المنفك؟!

4-وإن كان نداء المرأة للمعتصم **عن بعد**، وكذا خطاب النبي للهلال والمسافة بينهما سنين ضوئية، خرجا من الشرك مطلقًا؛ لانفكاكهما عن معاني الربوبية والعبادة، أفليس من باب أولى أن يخرج طلب الدعاء من الميت **عن قرب** مادام منفكًا عن ربوبية الله وإلوهيته؟

علمًا بأن من نادى الهلال وهو يعتقد سماعه له فقد كفر، وإن نادت عائشة عثمان مع اعتقادها سماعه فقد كفرت وحاشاها.

5- مما يدل على عدم ملازمة معاني الربوبية والعبادة لكل نداءٍ وطلبٍ، والفرق جليٌ واضح بين نداء عمر، وبين نداء الكفار للصنم : ياهُبَل، فالأول منفك، والثاني غير منفك.

5- أليس من باب أولى أن يكون نفس الفرق موجودًا في نداء الميت؛ لأن نداء الحجارة أخطر، ولأن نداء الميتَ محتملٌ لسماعهِ، أما نداءُ الحجارةَ فلا يَحتمل ..

الوقفة السابعة:

طلب الدعاء بين البدعة والجواز.

وتحتها مطلبان:

المطلب الأول: علماء أجازوا طلب الدعاء من الميت.

المطلب الثاني: تحرير مذهب ابن تيمية.

المطلب الأول: علماء أجازوا طلب الدعاء من الميت.

لقد اختلف العلماء منذ القدم حول هذه المسألة، ولقد أجازها بعضهم بعدة استدلالات، وقد أشار ابن تيمية إلى هذا الخلاف أكثر من مرة ..

– قال ابن تيمية:" وأما الحكاية في تلاوة مالك هذه الآية ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم الآية فهي والله أعلم باطلة فإن هذا لم يذكره أحد من الأئمة فيما أعلمه ولم يذكر أحد منهم أنه استحب أن يُسأل النبي صلى الله عليه و سلم بعد الموت لا استغفارا ولا غيره، وكلام مالك المنصوص عنه وعن أمثاله ينافي هذا وإنما يعرف مثل هذا في حكاية ذكرها طائفة من متأخري الفقهاء عن أعرابي أنه أتى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتلا هذه الآية وأنشد بيتين .

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ولهذا استحب طائفة من متأخري الفقهاء من أصحاب الشافعي واحمد مثل ذلك واحتجوا بهذه الحكاية التي لا يثبت بها حكم شرعي لا سيما في مثل هذا الأمر الذي لو كان مشروعا مندوبا لكان الصحابة والتابعون أعلم به وأعمل به من غيرهم ..وقد يعمل الرجل العمل الذي يعتقده صالحا ولا يكون عالما أنه منهي عنه فيثاب على حسن قصده ويعفى عنه لعدم علمه وهذا باب واسع ".اهـ اقتضاء الصراط المستقيم.

فتأمل إشارة ابن تيمية في أول كلامه إلى جماعة من فقهاء الشافعية والحنابلة استحبوا :" أن يُسأل النبي صلى الله عليه و سلم بعد الموت".اهـ ..

أدلة المجوزين للمسألة :

وهؤلاء الفقهاء استدلوا بعدة أدلة، وهي كالتالي:

الدليل الأول:

قوله تعالى :" ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾.

وجه الشاهد: عندهم، قوله تعالى:﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾، أي إنَّ العبد لما يُذنب، يأتي إلى الرسول ويطلب منه أن يستغفر الله له، أي يدعو له بالمغفرة، وهذا الدليل عندهم عام في حياة النبي ومماته.

الدليل الثاني:

وهو حديث العتبي الذي أورده الإمام البيهقي في شعب الإيمان:"عن محمد بن روح بن يزيد البصري ، حدثني أبو حرب الهلالي قال : حج أعرابي فلما جاء إلى باب مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم أناخ راحلته فعلقها ثم دخل المسجد حتى أتى القبر و وقف بحذاء وجه رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : السلام عليك يا رسول الله ثم سلم على أبي بكر و عمر ثم أقبل على رسول الله فقال بأبي و أنت و أمي يا رسول الله جئتك مثقلا بالذنوب و الخطايا مستشفعا بك على ربك لأنه قال في محكم كتابه : { ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما} وقد جئتك بأبي و أنت و أمي مثقلا بالذنوب و الخطايا أستشفع بك على ربك أن يغفر لي ذنوبي، **وأن تشفع في**". اهـ

وجه الشاهد: أن العتبي طلب من النبي الدعاء والشفاعة..وفي الحقيقة ما طلبه العتبي مبهم في الرواية التي ذكرها ابن كثير في تفسيره ، فهي تحتمل طلبه من الله، وطلبه من النبي، أما رواية البيهقي المتقدمة فقد أزالت جزءً من الاحتمال بقوله:" **وأن تشفع في**"، فقد طلب الشفاعة من النبي مباشرةً، وسيأتي بعد قليل ما هو أصرح منها..

الدليل الثالث:

حديث أورده ابن حجر، قال في فتح الباري:" رَوَى اِبْن أَبِي شَيْبَة بِإِسْنَادٍ صَحِيح مِنْ رِوَايَة أَبِي صَالِح السَّمَّانِ عَنْ مَالِك الدَّارِيّ – وَكَانَ خَازِن عُمَر – قَالَ " أَصَابَ النَّاس قَحْط فِي زَمَن عُمَر فَجَاءَ رَجُل إِلَى قَبْر النَّبِيّ فَقَالَ : يَا رَسُول اللَّه اِسْتَسْقِ لِأُمَّتِك فَإِنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا ، فَأَتَى الرَّجُلَ فِي الْمَنَام فَقِيلَ لَهُ : اِئْتِ عُمَر " الْحَدِيث . وَقَدْ رَوَى سَيْف فِي الْفُتُوح أَنَّ الَّذِي رَأَى الْمَنَام الْمَذْكُور هُوَ بِلَال بْن الْحَارِث الْمُزَنِيُّ أَحَد الصَّحَابَة".اهـ

وجه الشاهد : إنَّ أحد الصحابة وهو بِلَال بْن الْحَارِث أتى إلى قبر النبي، وطلب منه أن يدعو الله بإنزال المطر؛ بسبب القحط .. وقد صحح ابن كثير هذه الرواية أيضًا.

- قال ابن كثير في البداية والنهاية :" وقال الحافظ ابو بكر البيهقي اخبرنا ابو نصر بن قتادة وابو بكر الفارسي قالا حدثنا ابو عمر بن مطر حدثنا ابراهيم بن علي الذهلي حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا ابو معاوية عن الأعمش عن ابي صالح عن مالك قال اصاب الناس قحط في زمن عمر بن الخطاب فجاء رجل الى قبر النبي فقال يارسول الله استسق الله لامتك فانهم قد هلكوا فأتاه رسول الله في المنام فقال ايت عمر فاقره مني السلام واخبرهم انه مسقون وقل له عليك بالكيس الكيس فاتى الرجل فاخبر عمر فقال يارب ما آلوا الا ما عجزت عنه، وهذا اسناد صحيح".اهـ

تنبيهات:

1- لم نستهدف في هذا المقام مناقشة صحة الأحاديث السابقة؛ لأنَّ كلامنا عمّن أجازوا ذلك، لا عن صحة استدلالاتهم، والحق أن تصحيح ابن حجر وابن كثير فيه نظر، وبعضهم رفضه.

2- بالتأمل والنظر إلى هذه الاستدلالات تعلم أنَّ محل كلام العلماء كله حول الصورة السادسة من صور طلب الدعاء؛ وذلك لأن العتبي أو الصحابي بِلَال بْن الْحَارِث قد أتوا إلى قبر النبي، وطلبوا منه في جهرٍ من القول، بطريقة عادية لا خضوع فيها كطلبهم من الأحياء، ودون اعتقادٍ منهم بسمع زائدٍ أو علمٍ مطلق للنبي..وكيف يعتقدون ذلك أصلًا، وأحدهم من الصحابة؟!

وقد أورد ابن تيمية كل هذه الاستدلالات المتقدمة وأجاب عنها ..

- قال ابن تيمية :"وهكذا أهل الزيارات البدعية، منهم من يطلب من المزور دعاءه وسؤاله لربه، واستغفاره، واستنصاره، ودعاءه له بالرزق، وشفاعته، ونحو ذلك، وهذا وإن كان قد ذكر بعض طائفة من العلماء، وجعلوا قوله: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوااللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} يتناول من يأتيه بعد الموت، فيطلب منه الاستغفار له، كما كان أصحابه يطلبون منه الاستغفار في حياته، وذكروا في ذلك حكاية لبعض الأعراب، ومنامًا رآه العتبي، وقيل: بل رآه محمد بن حرب الهلالي، وهم مختلفون في الشعر المذكور فيها، فجمهور الأئمة لم يستحبوا ذلك، وإنما ذكره بعض أصحابهم، ولم يكن الصحابة يفعلون مثل هذا، ولا هو أيضًا معروف عن التابعين، ومعلوم أن كل واحد من المسلمين يطلب مغفرة الله، وهو مأمور بالاستغفار، فإنه لا يغفر الذنوب إلا الله،فإن قيل: فقد روي أن رجلاً أتى إلى قبر

النبي عام الرمادة، فقال: يا رسول الله، هلكت أمتك، فادع الله لنا، فرأى النبي في المنام وقال: ائت عمر فقل: عليك بالكيس، ومره أن يستسقي بالناس، واستسقى عمر فسقي الناس. قيل: هذه الحكاية حجّة على المنازع، فإن هذا الرجل لما طلب منه، ما قال له: أنا أدعو لكم، بل أمرهم بما شرعه لهم، وسنه لهم، وهو أنهم يدعون الله، ويستسقون به. وفي الحكاية أنه قال له: قل لعمر: عليك بالكيس، أي بالاستقامة، فلما قال لعمر قال: ما آلو جهدي، فهذا فيه أنه أمرهم بطاعة الله ورسوله وأمرهم بالاستسقاء، وهذا هو شرعه الذي شرعه لهم في حياته، فلم يأمرهم بعد الموت إلا بما أمرهم في حياته، وهذا الرجل الذي قال له: ادع لأمتك، مجهول، ما هو من المهاجرين، والأنصار، الذين يقتدى بهم، ويكفيك أنه لم يأت أحد منهم إلى قبره يطلب منه الدعاء إلا رجل مجهول، لا يُعرف... فتبين أن قول جمهور العلماء الذين لا يستحبون أن يطلب منه بعد موته استغفار، ولا غيره، هو المشروع الذي كان عليه الصحابة ".اهـ كتاب: قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الاسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق.

قلتُ: وكلام ابن تيمية فيه عدة تأملات:

1- منها أنه أكد مرة أخرى على أن القول بالتبديع مذهب الجمهور، وقد خالفهم بعض العلماء واستحبوا ذلك، وسيأتي معنا ذكرهم في هذا البحث.

2-مما يعني أنَّ المسألة ليس محل إجماع على التبديع، فضلًا عن الإجماع على التكفير.

3- رَدَّ ابن تيمية على حديث الاستسقاء من القحط بأن الرجل مجهولٌ، وهذا الوجه قد تعقبه فيه غيره بأن الرجل معلوم، وهو من الصحابة، وذكر اسمه ابن حجر كما تقدم، فلا يعني جهل ابن تيمية به أنَّه غير معلوم، والقاعدة على أن عدم العلم ليس علمًا بالعدم.

4-أما الوجه الثاني الذي ذكره ابن تيمية بأن في الحديث حجة على المجيز، فهذا الكلام صحيح، غير أنَّ تلك الحجة كافية للحكم على الفعل بالتبديع لا بالتكفير.

قال تقي الدين السبكي:" الباب الخامس في تقرير كون الزيارة قربة وذلك بالكتاب والسنة والإجماع والقياس وأما الكتاب: فقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا} دلت الآية على حث على المجيء إلى رسول الله والاستغفار عنده واستغفاره لهم، وذلك وإن كان ورد في حال الحياة فهي رتبة له لا تنقطع بموته تعظيماً له، فإن قلت: المجيء إليه في حال الحياة ليستغفر لهم، وبعد الموت ليس كذلك قلت: دلت الآية على تعليق

وجداهم الله تواباً رحيماً بثلاثة أمور: المجيء واستغفارهم واستغفار الرسول، فأما استغفار الرسول فإنه حاصل لجميع المؤمنين،لأن رسول الله استغفر للمؤمنين لقوله تعالى: ((واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات)).. والآية وإن وردت في أقوام معينين في حالة الحياة فتعم بعموم العلة كل من وجد فيه ذلك الوصف في الحياة وبعد الموت ".اهـ

نقل ابن عبدالهادي هذا الكلام بنصه في الصارم المنكي وتعقبه قائلًا:" أما استدلاله بقوله تعالى:[وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً] فالكلام فيها في مقامين:أحدهما: عدم دلالته على مطلوبه.

الثاني: بيان دلالتها على نقيضه وإنما يتبين الأمر بفهم الآية ما أريد بها وسيقت له وما فهمه منها أعلم الأمة بالقرآن ومعانيه وهم سلف الأمة ومن سلك سبيلهم، ولم يفهم أحد من السلف والخلف إلا المجيء إليه في حياته يستغفر لهم ، وقد ذم الله تعالى من تخلف عن هذا المجيء إذ ظلم نفسه وأخبر أنه من المنافقين فقال تعالى:[وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ] وكذلك هذه الآية إنما هي في المنافق الذي رضي بحكم كعب بن الأشرف وغيره من الطواغيت دون حكم رسول الله فظلم نفسه بهذا أعظم الظلم، ثم لم يجئ إلى رسول الله ليستغفر له".اهـ الصارم المنكي في الرد على السبكي.((1))

وبالرغم من إجازة السبكي الكبير لهذه الصورة، وخلافه البارز مع مدرسة ابن تيمية حول إجازتها، إلا أنّ الذهبي وهو تلميذ ابن تيمية مَدَحَهُ واعتبره شيخًا للإسلام، قال الذهبي:" قدم العلامة شيخ الإسلام تقي الدين السبكي على قضاء الشافعية بالشام، وفرح المسلمون به".اهـ كتاب العبر في خبر من غبر.

(1) ـ لقد أخطأ السبكي لما عَمَّمَ مناط آية "وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ" لتشمل المجيء إلى الرسول في حياته ومماته، مع أن في الآية إشارة إلى أن المجيء إليه مقيدُ بحياته فقط، دلَّ عليها قوله تعالى :{ إِذْ } ، وهي في لغة العرب تستعمل لما مضى من الزمان، قال ابن منظور:"وإِذْ كلمة تدل على ما مضى من الزمان وهو اسم مبني على السكون".اهـ لسان العرب، وهي تختلف عن كلمة :{ إِذَا}، فإنها للمستقبل، قال الجوهري:" إذَا اسم يدل على زمان مستقبل".اهـ الصحاح، أمّا إذن فهي للزمن المضارع، وتنصب فعله بشروط.
مثال إذ : قوله تعالى :" أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموتُ "
مثال إذا : قوله تعالى :" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا"

- قال القرطبي في تفسيره :"وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ.. رَوَى أَبُو صَادِق عَنْ عَلِيّ قَالَ : قَدِمَ عَلَيْنَا أَعْرَابِيّ بَعْدَمَا دَفَنَّا رَسُول اللَّه بِثَلَاثَةِ أَيَّام , فَرَمَى بِنَفْسِهِ عَلَى قَبْر رَسُول اللَّه وَحَثَا عَلَى رَأْسه مِنْ تُرَابه ; فَقَالَ : قُلْت يَا رَسُول اللَّه فَسَمِعْنَا قَوْلَك , وَوَعَيْت عَنْ اللَّه فَوَعَيْنَا عَنْك , وَكَانَ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّه عَلَيْك " وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسهمْ " الْآيَة , **وَقَدْ ظَلَمْت نَفْسِي وَجِئْتُك تَسْتَغْفِر لِي**، فَنُودِيَ مِنْ الْقَبْر إِنَّهُ قَدْ غُفِرَ لَك".اهـ

- قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط:" وروي عن علي كرم الله وجهه أنه قال : قدم علينا أعرابي بعدما دفنا رسول الله بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبره وحثا من ترابه على رأسه ثم قال:

يا خير من دفنت في الترب أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم قال : قد قلت : يا رسول الله فسمعنا قولك ، ووعيت عن الله فوعينا عنك ، وكان فيما أنزل الله عليك ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك الآية ، وقد ظلمت نفسي وجئت أستغفر الله ذنبي ، **فاستغفر لي من ربي** ، فنودي من القبر أنه قد غفر لك ."اهـ

- قال النسفي في تفسيره:" جاء أعرابي بعد دفنه عليه السلام فرمى بنفسه على قبره وحثا من ترابه على رأسه وقال : يا رسول الله ، قلت فسمعنا وكان فيما أنزل عليك : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم» الآية . وقد ظلمت نفسي وجئتك أستغفر الله من ذنبي **فاستغفر لي من ربي** ، فنودي من قبره قد غفر لك".اهـ

- وقال الثعلبي في تفسيره :"روى الصادق عن علي (عليهما السلام) قال : قدم علينا أمرؤ عندما دفنّا رسول الله ثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبر النبي عليه الصلاة والسلام وحثا على رأسه من ترابه وقال : يا رسول الله قلت فسمعنا قولك ووعيت من الله فوعينا عنك وكان فيما أنزل الله عليك {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيما} فقد ظلمت نفسي **فجئتك لتستغفر لي** فنودي من القبر أنه قد غفر لك".اهـ

والحاصل إنَّ الذي يظهر من حكاية العتبي أنَّه طلب المغفرة من الله فعلًا لكن عن طريق الرسول، لذا ذهب إلى قبره، وطلب منه استغفاره ودعائه له، وهذا معنى استشفاعه بالنبي، لا كما يفهمه المُكفرون بأنه طَلَبَ من الله أن يُشَفِعَ فيه نبيه، وقد تناقل هذه الرواية الجمع من المفسرين كما تقدم، بل واستحسنها النووي ، فإن كانت شركًا فكيف يكون هذا موقفهم تجاهه!

- قال النووي في المجموع :" ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله ويتوسل به في حق نفسه ويستشفع به إلى ربه سبحانه وتعالى ومن أحسن ما يقول ما حكاه الماوردي والقاضي أبو الطيب وسائر أصحابنا عن العتبي مستحسنين له".اهـ

- قال السمهودي الشافعي(844هـ) :" وقد يكون التوسل به بعد الوفاة بمعنى طلب أن يدعو كما كان في حياته، وذلك فيما رواه البيهقي من طريق الأعمش عن أبي صالح عن مالك الدار، ورواه ابن أبي شيبة بسند صحيح عن مالك الدار، قال: أصاب الناس قحط في زمان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال :يا رسول الله، استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في المنام فقال: ائت عمر فاقرئه السلام وأخبره أنهم مسقون .. ومحل الاستشهاد طلب الاستسقاء منه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو في البرزخ ودعاؤه لربه في هذه الحالة غير ممتنع، وعلمه بسؤال من يسأله قد ورد، فلا مانع من سؤال الاستسقاء وغيره منه كما كان في الدنيا".اهـ كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى.

والسمهودي هو من علماء المدينة المنورة في عصره، وقد أثنى عليه السخاوي كثيرًا في كتابه الضوء اللامع.

- قال ابن الجوزي:" الباب التاسع والثلاثون: في الاستسقاء بقبره ...
عن أبي المِنْقَريّ قال: كنت أنا والطَّبَراني، وأبو الشيخ في حَرَم رسول الله وكنا على حالة، فأثَّر فينا الجوع، فواصَلْنا ذلك اليوم، فلما كان وقت العشاء حضرتُ قبرَ رسول الله وقلت: يا رسول الله الجوع الجوع وانصرفت فقال لي أبو الشيخ: اجلس فإما أن يكون الرزق أو الموت، قال أبو بكر: فنمت أنا، وأبو الشيخ، والطبرانيُّ جالسٌ ينظر في شيء. فحضر بالباب عَلَوِيّ فدقَّ الباب، فإذا معه غلامان مع كل واحد منهما زنبيل كبير فيه شيء كثير. فجلسنا وأكلنا ".اهـ الوفا بتعريف فضائل المصطفى.

فتأمل: عَنْوَنَ ابن الجوزي الباب بما يفيد طلب الدعاء من النبي بالسقية، ولعله يشير إلى حديث بلال بن الحارث :" يَا رَسُولَ اللَّهِ اِسْتَسْقِ لِأُمَّتِك"، وقد سرد ابن الجوزي تحت هذا العنوان عددًا من المرويات يشير بها إلى فضل الاستسقاء بالنبي، وأحسبها كلها محل نظر، ومن ضمن ما سرد، الحكاية أعلاه عن قصة حدثت مع أبي الشيخ وهو ابن حيان الأصفهاني، والطبراني، وابن المنقري، لما ضاق بهم الجوع ذهبوا إلى قبر النبي؛كي يستسقي لهم كما فى عنوان الباب، أي كي يدعو الله لهم، مما يدل على استحسان ابن الجوزي لهذا الفعل..

والحق غير ما ذهب إليه كل هؤلاء، فإن القول ببدعيتها أظهر؛ لعدم فعل جماهير الصحابة لذلك..

قال السهسواني:" وإن كان المدعو حياً غير حاضر، أو ميتاً وينادى من مكان بعيد من القبر، فهذا أيضاً شرك، فإن فيه إثبات علم الغيب لغير الله تعالى وهو من الصفات المختصة به تعالى، وإن كان ذلك المدعو ميتاً وينادى عند قبره، فهذا ليس بشرك ولكنه بدعة، فعلى كل حال ينبغي للمؤن أن يجتنب دعاء غير الله، وذلك هو القول الذي لا إفراد فيه ولا تفريط".اهـ كتاب صيانة الإنسان .

ولازال كلام المجيزين لم ينتهِ بعد، واستكماله تحت أبواب الشفاعة القادمة..

المطلب الثاني: تحرير مذهب ابن تيمية.

لقد تنازع الناس حول موقف ابن تيمية من هذه المسألة، فمنهم من نسب إليه القول بالتكفير، ومنهم من نسب إليه القول بالتبديع، وكلى الفريقين يستشهد بمواضع من كلامه رحمه الله، وطال الجدال بينهم واشتد جدًا بين مُثْبِتٍ ونافٍ، حتى تكاد تشعر أن الدليل هو كلامه، وعلى أية حالة سواء وُفِّقْنا في تحرير مذهبه أم لم نُوَفَّق، فقد عرضنا المسألة وفقًا لقواعد التوحيد وأصول الدين والاعتقاد، وأوردنا لها نظيرٌ من غيرها، ولم يتبقَ لبيان كلامه أثرٌ إلا عند المُقلدين، والحق أن كلام العلماء يُستأنس به، ويُستدل له لا به، ومع هذا سنحاول بيان موقفه، فإن بعض القلوب تبقى في حيرةٍ واضطراب؛ لتعلقها الزائد بكلام البشر...

- قال ابن تيمية:" وَأَمَّا مَنْ يَأْتِي إلَى قَبْرِ نَبِيٍّ أَوْ صَالِحٍ أَوْ مَنْ يَعْتَقِدُ فِيهِ أَنَّهُ قَبْرُ نَبِيٍّ أَوْ رَجُلٍ صَالِحٍ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَيَسْأَلُهُ وَيَسْتَنْجِدُهُ فَهَذَا عَلَى **ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:إحْدَاهَا** :أَنْ يَسْأَلَهُ حَاجَتَهُ مِثْلُ أَنْ يَسْأَلَهُ أَنْ يُزِيلَ مَرَضَهُ أَوْ مَرَضَ دَوَابِّهِ أَوْ يَقْضِيَ دَيْنَهُ أَوْ يَنْتَقِمَ لَهُ مِنْ عَدُوِّهِ أَوْ يُعَافِيَ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَدَوَابَّهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :فَهَذَا شِرْكٌ صَرِيحٌ ...وَإِنْ قُلْت: هَذَا إذَا دَعَا اللَّهَ

أَجَابَ دُعَاءَهُ أَعْظَمَ مِمَّا يُجِيبُهُ إذَا دَعَوْته فَهَذَا هُوَ " **الْقِسْمُ الثَّانِي** " وَهُوَ أَلَّا تَطْلُبَ مِنْهُ الْفِعْلَ وَلَا تَدْعُوَهُ وَلَكِنْ تَطْلُبُ أَنْ يَدْعُوَ لَك. كَمَا تَقُولُ لِلْحَيِّ: اُدْعُ لِي وَكَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - يَطْلُبُونَ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الدُّعَاءَ فَهَذَا مَشْرُوعٌ فِي الْحَيِّ كَمَا تَقَدَّمَ وَأَمَّا الْمَيِّتُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَغَيْرِهِمْ فَلَمْ يُشْرَعْ لَنَا أَنْ نَقُولَ: اُدْعُ لَنَا وَلَا اسْأَلْ لَنَا رَبَّك وَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَلَا أَمَرَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ وَلَا وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ بَلْ الَّذِي ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُمْ لَمَّا أَجْدَبُوا زَمَنَ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إنَّا كُنَّا إذَا أَجْدَبْنَا نَتَوَسَّلُ إلَيْك بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إلَيْك بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا فَيُسْقَوْنَ وَلَمْ يَجِيئُوا إلَى قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَائِلِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اُدْعُ اللَّهَ لَنَا وَاسْتَسْقِ لَنَا وَنَحْنُ نَشْكُو إلَيْك مِمَّا أَصَابَنَا وَنَحْوَ ذَلِكَ. لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ قَطُّ بَلْ هُوَ بِدْعَةٌ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كَانُوا إذَا جَاءُوا عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ فَإِذَا أَرَادُوا الدُّعَاءَ لَمْ يَدْعُوا اللَّهَ مُسْتَقْبِلِي الْقَبْرَ الشَّرِيفَ بَلْ يَنْحَرِفُونَ وَيَسْتَقْبِلُونَ الْقِبْلَةَ وَيَدْعُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا يَدْعُونَهُ فِي سَائِرِ الْبِقَاعِ ..

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّالِثُ وَهُوَ أَنْ يَقُولَ : اللَّهُمَّ بِجَاهِ فُلَانٍ عِنْدَك أَوْ بِبَرَكَةِ فُلَانٍ أَوْ بِحُرْمَةِ فُلَانٍ عِنْدَك : افْعَلْ بِي كَذَا وَكَذَا . فَهَذَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ ؛ لَكِنْ لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَلَفِ الْأُمَّةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَ بِمِثْلِ هَذَا الدُّعَاءِ وَلَمْ يَبْلُغْنِي عَنْ أَحَدٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مَا أَحْكِيهِ ؛ إلَّا مَا رَأَيْت فِي فَتَاوَى الْفَقِيهِ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ . فَإِنَّهُ أَفْتَى : أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ ؛ إلَّا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إنْ صَحَّ الْحَدِيثُ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ".اهـ مجموع الفتاوى.

ففي هذا النقل يقرر ابن تيمية أنَّ المسألة بدعة، ولا يصح ههنا أن يُقال: إنَّ كلامه يُراد به البدعة الشركية كما يُوَجِّهه المُكَفِّرون، لأن الكلام أتى في سياق التقسيم بالتدرج والترتيب من الأعلى إلى الأسفل، بحسب تقسيمه إلى ثلاثة أقسام، مبتدئًا كلامه عن أعلاهم وأشدهم وهي المرحلة الشركية، ثم انتقل إلى الكلام عن البدعية، ثم انتقل إلى الكلام عن المنهي عنها، مما يعني أنَّ الثلاث مراتب ليسوا على درجةٍ واحدة بموجب التقسيم، بخلاف ما لو ذكر القول بالتبديع في غير موطن التدرج والتقسيم، فحينها قد يكون للمخالف وجهًا من حمل البدعة على الشركية.

–قال ابن تيمية:"وهذه الأمور المبتدعة من الأقوال هي مراتب أبعدها عن الشرع أن يسأل الميت حاجة أو يستغيث به فيها كما يفعله كثير من الناس بكثير من الأموات وهو من جنس عبادة الأصنام..
المرتبة الثانية أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب أو أنه أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت فيقصد زيارتة لذلك أو للصلاة عنده أو لأجل طلب حوائجه (عنده) فهذا أيضا من المنكرات المبتدعة باتفاق أئمة المسلمين وهي محرمة وما علمت في ذلك نزاعا بين أئمة الدين
المرتبة الثالثة أن يسأل صاحب القبر أن يسأل الله له وهذا بدعة باتفاق أئمة المسلمين".اهـ كتاب الاستغاثة

– قال ابن تيمية:" فتراه يأتي قبر من يحسن به الظن إن كان ميتا فيقول يا سيدي فلان أنا في حسبك أنا في جوارك أنا في جاهك قد أصابني كذا وجرى على كذا ومقصوده قضاء حاجته إما من الميت أو به ومنهم من يقول للميت اقض ديني واغفر ذنبي وتب على **ومنهم من يقول سل لي ربك** ومنهم من يذكر ذلك في نظمه ونثره ومنهم من يقول يا سيدي الشيخ فلان أو يا سيدي رسول الله نشكو إليك ما أصابنا من العدو وما نزل بنا من المرض وما حل بنا من البلاء ومنهم من يظن أن الرسول أو الشيخ يعلم ذنوبه وحوائجه وإن لم يذكرها وأنه يقدر على غفرانها وقضاء حوائجه ويقدر على ما يقدر عليه الله ويعلم ما يعلمه الله وهؤلاء قد رأيتهم وسمعت هذا منهم ومن شيوخ يقتدي بهم ومفتين وقضاة ومدرسين ومعلوم أن هذا لم يفعله أحد من السلف ولا شرع الله ذلك ولا رسوله ولا أحد من الأئمة ولا مع من يفعل ذلك حجة شرعية أصلا بل من فعل ذلك كان شارعا من الدين ما لم يأذن به الله **فإن هذا الفعل منه ما هو كفر صريح ومنه ما هو منكر ظاهر** سواء قدر أن الميت يسمع الخطاب كما إذا خوطب من قريب أو قدر أنه لا يسمعه كما إذا خوطب من بعيد ".اهـ الرد على البكري

فتأمل ذَكَرَ ابن تيمية العديد من الأفعال، وقال منها الشركي ومنها البدعي المُنكر، فتأمل فيها بنفسك لتُخرج ما هو بدعة منها..

– قال ابن تيمية:" وقد حدث من بعض المتأخرين في ذلك **بدع** لم يستحبها أحد من الأئمة الأربعة **كسؤاله الاستغفار**، **وزاد** بعض جهال العامة ما هو محرم أو كفر بإجماع المسلمين كالسجود للحجرة والطواف بها وأمثال ذلك مما ليس هذا موضعه".اهـ الرد على الأخنائي

والبدعة ههنا جعلها في مقابلة المحرم والكفر بدليل قوله :"وزاد بعض جهال العامة".اهـ ، أي إنهم زادوا على البدعة التي لم يستحبها أحدٌ قدرًا آخر انتقل بها إلى حكمٍ آخر أشد وهو إما محرم أو كفر.. وجعلها ابن تيمية قبل المحرم؛ لأن بعض الأئمة صرحوا باستحبابها كما نصّ هو فيما قدمنا عنه، فكأنما أراد هذه المرة التدرج بالزيادة لا بالنقصان، بالانتقال من المختلف فيه إلى المحرم إلى الكفر.

وعلى فرض ثبوت القول بالتكفير بعد ذلك عن ابن تيمية، فالأولى أن يُقال إنَّ له في المسألة قولين، أو لعله من التطور الفكري عنده، ولا ندري أيهما الأقدم..

تتمة جانبية: التطور الفكري عند ابن تيمية:

لقد غَيَّرَ ابن تيمية فِكْرِهِ، وانتقل من مرحلة لأخرى في حياته، كما حدث مع الكثير مِنَّا أثناء بحثه عن الحق، فالرجل كان على المذهب الأشعري في أول حياته، ثم مع النضوج والنظر انتقل إلى المذهب السُّنِّي، وهذا ما يسميه البعض بالتطور الفكري، ولما تَتَبَّعْتُ هذه المسألة في حياة ابن تيمية، لم أقفْ له إلا على موضعين صَرَحَ فيهم بحدوث التطور عنده..

الموضع الأول : قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى :"ولكن هذه المسألة و مسألة الزيارة وغيرهما حدث المتأخرين فيها شبه **وأنا وغيرى كنا على مذهب الآباء فى ذلك نقول فى الأصلين بقول أهل البدع** فلما تبين لنا ما جاء به الرسول دار الامر بين أن نتبع ما أنزل الله أو نتبع ما وجدنا عليه آباءنا فكان الواجب هو اتباع الرسول وأن لا نكون ممن قيل فيه واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا".اهـ مجموع الفتاوى.

ويقصد بكلامه ههنا مسألة حلول الحوادث ونفي الصفات الاختيارية، فقد نفى الأشاعرة صفات الأفعال الاختيارية كنزول الله في الثلث الأخير؛ باعتبار أنَّ هذا تغير، وكل تغير حادث، وكل حادث مخلوق، وكذلك قالوا في صفتي الكلام والسمع وغيرهما إن الله قبل الخلق لم يكُ يتكلم وهكذا ..ولقد صرح ابن تيمية بأنه كان على هذا المذهب، ثم انتقل منه إلى مذهبه الحالي، وأجاب عن هذه الشبهة بأنه ليس كل تغير مخلوق..إلخ، وليس المقام للبيان.

الموضع الثاني : قال في اقتضاء الصراط المستقيم:" قد ذكر طائفة من المصنفين في المناسك استحباب زيارة مساجد مكة وما حولها **وكنت قد كتبتها في منسك كتبته قبل ان أحج في أول عمري لبعض الشيوخ جمعته من كلام العلماء ثم تبين لي أن هذا كله من البدع المحدثة التي لا أصل لها في الشريعة**".اهـ

ولعل للرجل مراجعات فكرية أخرى لم تصلنا، أو لم نعلم بها، وهذا ما قد يبين سر الإشكال العظيم في بعض كلامه، ولعل فيه إشارة تنبيه إلى وجوب الرجوع إلى الحق واتِّبَاعِهِ وإنْ علا قدرك..

وعلى أية حالة لازال الكلام عن حقيقة مذهبه قائمًا، واستكماله تحت أبواب الشفاعة القادمة.

الوقفة الثامنة:

مسائل متعلقة بالأموات.

وتحتها ست مسائل:

المسألة الأولى : هل الميت قادر على الدعاء في قبره؟

المسألة الثانية : هل الميت قادر على الصلاة في قبره؟

المسألة الثالثة: هل الميت قادر على الكلام والسماع في قبره؟

المسألة الرابعة : كيف يعمل الميت في قبره وعمله منقطع؟!

المسألة الخامسة: ما الفرق بين جنس طلب الدعاء وجنس طلب الإنقاذ؟

المسألة السادسة: وقفة مع آية والذين تدعون من دونه.

المسألة الأولى : هل الميت قادر على الدعاء في قبره؟

الجواب: نعم، فالأموات عمومًا والنبي خصوصًا يقدرون على الدعاء في قبورهم..

1- والدليل على قدرة الميت عمومًا على الدعاء في قبره حديث البراء بن عازب في حديث عذاب القبر:"فيقول المؤمن رب عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.."رواه أحمد، واسترسل ابن القيم في تصحيحه.

2- والدليل على قدرة النبي خصوصًا على الدعاء في قبره حديث عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : "حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، ووفاتي خير لكم، تعرض علي أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم "..صحح اسناده الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد والسيوطي في الخصائص الكبرى، وغيرهم.

3- وبالرغم من قدرة الأموات على الدعاء في قبورهم، إلا إنه لا يجوز أن يطلب أحدٌ منهم ذلك، وهذا هو وجه البدعة.

- قال ابن تيمية:" وكذلك الأنبياء والصالحون، وإن كانوا أحياء في قبورهم، وإن قدر أنهم يدعون للأحياء وإن وردت به آثار فليس لأحد أن يطلب منهم ذلك، ولم يفعل ذلك أحد من السلف؛ لأن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم ".اهـ قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة.

المسألة الثانية : هل الميت قادر على الصلاة في قبره؟

1-ثبت أنَّ نبي الله موسى يُصلي في قبره، فعن أنس بن مالك عن النبي قال :" أَتَيْتُ عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ" رواه مسلم.

2- ومنه حديث أنس بن مالك أن النبي قال: "الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون".رواه البزار، والحديث وإن كان فيه كلام إلا أن الشاهد السابق يقويه.

- قال ابن القيم: " وَقد صَحَّ عَنهُ أَنه رأى مُوسَى قَائِما يصلى فِي قَبره لَيْلَة الاسراء وَرَآهُ فِي السَّمَاء السَّادِسَة أَو السَّابِعَة فالروح كَانَت هُنَاكَ وَلها اتِّصَال بِالْبدنِ فِي الْقَبْر وإشراف عَلَيْهِ وَتعلق بِهِ بِحَيْثُ يصلى فِي قَبره وَيرد سَلام من سلم عَلَيْهِ وَهِي فِي الرفيق الْأَعْلَى وَلَا تنَافِي بَين الْأَمريْنِ فَإِن شَأْن الْأَرْوَاح غير شَأْن الْأَبدَان".اهـ كتاب الروح

4- وفي قدرة الأنبياء على الصلاة في قبورهم دليل آخر على قدرتهم على الدعاء في قبورهم أيضًا؛ إذ الصلاة تحوي ولابد على الدعاء.

المسألة الثالثة: هل الميت قادر على الكلام والسماع في قبره؟

1- أمّا عن سماع الأموات، فمسألة محل نزاع قديم بين أهل العلم، وأكثرهم على أن الأموات يسمعون كلام الأحياء؛ واستدلوا بما ثبت في الصحيحين، أن النبي قال عن الميت: "إنه ليسمع خفق نعالهم إذا انصرفوا"، وبخطاب النبي لقتلى بدرٍ من المشركين بعد أن تَرَكَهُم ثلاثة أيامٍ :"ياأبا جهل بن هشامٍ، يا أمية بن خلَفٍ، يا عُتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا"، فسمع عمرُ قول النبي فقال: يا رسول الله، كيف يسمعوا، وأنى يجيبوا، وقد جيَّفوا؟ قال: والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا"، ثم أمر بهم فسحبوا، فأُلْقوا في قليب بدرٍ" متفقٌ عليه.

والحديث فيه دليل على سؤال النبي للأموات، ونداؤه لهم ..

2- أما عن قدرة الأموات على الكلام في قبورهم، فقد ثبت ذلك أيضًا ..

- قال ابن تيمية:" وأما سؤال السائل هل يتكلم الميت في قبره فجوابه أنه يتكلم وقد يسمع أيضا من كلمة كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال إنهم يسمعون قرع نعالهم وثبت عنه في الصحيح أن الميت يسأل في قبره فيقال له من ربك وما دينك ومن نبيك فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فيقول الله

ربي والإسلام ديني ومحمد نبي ويقال له ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول المؤمن هو عبد الله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه وهذا تأويل قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الأخرة، وقد صح عن النبي أنها نزلت في عذاب القبر وكذلك يتكلم المنافق فيقول آه آه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته ".اهـ مجموع الفتاوى

المسألة الرابعة : كيف يعمل الميت في قبره وعمله منقطع؟

والسؤال كيف يمكن للميت أن يدعو في قبره ويصلي مع أنَّ الرسول قال :"إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له" ؟

والجواب: إنَّ هذا الحديث يتكلم عن انقطاع الثواب والجزاء عن الأموات، ولا يلزم من صلاتهم ودعاؤهم في قبورهم الثواب والجزاء، بل هم في هذه الحالة يتعبدون للتنعيم، ومن ثمَّ فلا تعارض بين الأحاديث.

- جاء في مجموع الفتاوى لابن تيمية: "سئل رحمه الله عن هذه الأحاديث أن النبى رأى موسى عليه السلام وهو يصلى فى قبره ورآه وهو يطوف بالبيت ورآه فى السماء وكذلك بعض الانبياء وهل اذا مات احد يبقى له عمل والحديث انه ينقطع عمله وهل ينتفع بهذه الصلاة والطواف وهل رأى الانبياء بأجسادهم فى هذه الاماكن أم بأرواحهم

فأجاب : الحمد لله رب العالمين أما رؤيا موسى عليه السلام فى الطواف فهذا كان رؤيا منام لم يكن ليلة المعراج .. وهذه الصلاة ونحوها مما يتمتع بها الميت ويتنعم بها كما يتنعم اهل الجنة .. فانهم يلهمون التسبيح كما يلهم الناس فى الدنيا النفس فهذا ليس من عمل التكليف الذى يطلب له ثواب منفصل بل نفس هذا العمل هو من النعيم الذى تتنعم به الانفس وتتلذذ به وقول النبى اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له يريد به العمل الذى يكون له ثواب، لم يرد به نفس العمل الذى يتنعم به، فإن اهل الجنة يتنعمون بالنظر الى الله ويتنعمون بذكره وتسبيحه ويتنعمون بقراءة القرآن ويقال لقارىء القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فان منزلك عند آخر آية تقرؤها ويتنعمون بمخاطبتهم لربهم ومناجاته وان كانت هذه الامور فى الدنيا اعمالا يترتب عليها الثواب فهى فى الاخرة اعمال يتنعم بها صاحبها اعظم من اكله وشربه ونكاحه وهذه كلها اعمال ايضا والاكل والشرب والنكاح فى الدنيا مما يؤمر به ويثاب عليه مع النية الصالحة وهو فى الاخرة نفس الثواب الذى يتنعم به والله أعلم".اهـ

– وقال القرطبي رحمه الله:" فإنَّ قيل : كيف يصلون بعد الموت وليس تلك الحال حال تكليف ؛ فالجواب : أن ذلك ليس بحكم التكليف وإنَّما ذلك بحكم الإكرام لهم والتشريف ، وذلك أنهم كانوا في الدنيا حبّبت لهم عبادة الله تعالى. والصلاة بحيث كانوا يلازمون ذلك ، ثم توفوا وهم على ذلك ، فشرَّفهم الله تعالى بعد موتهم بأن أبقي عليهم ما كانوا يحبون ، وما عُرفوا به ، فتكون عبادتهم إلهاميّة كعبادة الملائكة ، لا تكليفية ..وقد جاء في الصحيح أن أهل الجنَّة يلهمون التسبيح كما تلهمون النَّفس ".اهـ المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم

المسألة الخامسة: ما الفرق بين جنس طلب الدعاء وجنس طلب الإنقاذ؟

تنقسم أفعال البشر التي يقدرون عليها إلى قسمين:

قِسْمٌ إنْ طُلِبَ من الميت عن قرب لم يحصل الشرك كطلب الدعاء ومسألة التلقين،

وقسمٌ ثانٍ إنْ طُلِبَ من الميت عن قرب فهو شركٌ أكبر كطلب إنقاذه لك وأنت تغرق بجوار قبره أو كطلب إصلاح سيارتك المتعطلة..فما الفرق بين القسمين، ولماذا الطلب الأول بدعة، والأخر شرك، مع أن المطلوب في كليهما مما يقدر عليه أحياء البشر؟ وما ضابط هذا؟

والجواب على هذا السؤال مما يحتاج إلى تأملٍ ونظر؛ خاصة أنه لا أحد من المتقدمين أو المعاصرين تعرض إلى هذا الفرق الدقيق حسب علمي، مع أنه من أكبر إشكالات المُكَفَّرين، وعلى أية حالة سأحاول بيانه –ومن كان عنده زيادة فلا يبخل عليَّ بها– وأقول:

1- إنَّ الطلبات الموجودة في هذين القسمين ليستا مما اختص به الله، مما يعني أنَّ طروء الشرك عليهما سيكون من باب اللازم الهادم للربوبية؛ لأن كليهما لا يخرق الإلوهية.

2- ومن هنا كان الفرق، فالقسم الثاني ومنه طلب إصلاح السيارة يلزم منه ضمنًا أنَّ للميت قدرة على التأثير في الكون وتدبيره وأن له تصرفًا خفيًا فيه، وهذا نقض للربوبية، بخلاف القسم الأول ومنه طلب الدعاء والتلقين لا يلزم منه ذلك، وإلا فما هي صفة الربوبية التي يلزم منه نقضها ؟ الجواب: لا يوجد، بل غاية ما يلزم منه هو اعتقاد أنَّ النبي قادرٌ على الدعاءِ في قبرهِ، أو اعتقاد أنَّ الميت قادر على إجابة أسئلة القبر الثلاث .. فهل مثل هذه الاعتقادات كفر؟ وهل هي تنقض ربوبية الله؟ بالقطع لا؛ لأن عكسها ليس من صفات الربوبية..!

وقد مَرَّ معنا الاستدلال على قدرة الأموات على الدعاء، وكذلك طلب بعض الصحابة من الأموات في التلقين.

3-وسبب لزوم القسم الثاني لنقض الربوبية وانفكاك هذا اللزوم عن القسم الأول هو أنَّ القسم الثاني احتفت به قرينة دلت على اعتقادٍ فاسدٍ عند الطالب، وهي استحالة قدرة الميت على إصلاح السيارة؛ لعجزه العجز التام، فصار قيامه بالمطلوب لا يكون إلا على وجه التدبير والتأثير، كأن يقول للسيارة كن فتكون، بخلاف القسم الأول الذي هو في إطار الممكنات بقرينة الفعل كما سنوضح.

4-والاستحالة ههنا منشأها أنَّ فعل الميت سيكون خارج قبره، بخلاف ما سيفعله الميت في قبره، فكونه سيفعل خارج قبره فيه دلالة قاطعة على أمره وتصرفه.

5-فالميت في القسم الأول يقدر، وفي الثاني مستحيل أن يقدر ومن ثمَّ فإن الطلب منه يلزم أمرًا وتصرفًا، بخلاف الأول يَلزم منه فعلًا وتنفيذًا ذاتيًا، وشتان الفرق بين ما يستلزم فعلًا وبين ما يستلزم أمرًا، فالمستلزم للفعل المبحث المتعلق به هو قدرة الميت على تنفيذ هذا الفعل العادي في قبره، وجواب هذا لا نعرفه إلا بالأخبار والمرويات؛ لأنها مسألة خبرية.

أمّا المستلزم للأمر فالمبحث المتعلق به هو قدرة الميت على الأمر والتدبير، وجواب هذا يُعلم بالعقل والفطرة؛ لأنها مسألة عقائدية تتعلق بأصل الربوبية.

5- وبذلك يتجلي الفرق بين الطلب المستحيل أن يحققه الميت العاجز خارج قبره، وبين الطلب الممكن أن يحققه الميت في قبره، فالأول يلزم منه اعطاء الميت قدرة خارقة بقرينة الاستحالة، والثاني يلزم منه اعطائه قدرته العادية في الدنيا وهو في قبره بقرينة الإمكان، لذا تعلق الأول بالتكفير والثاني بالتبديع أو الجواز.

6- **والخلاصة**: يوجد عندنا ثلاث صور متباينة مختلفة :

- 1- أنْ تطلب من الميت ما يقدر عليه في قبره، كالدعاء والصلاة وإجابة أسئلة القبر.
- 2- أنْ تطلب من الميت ما كان يقدر عليه في حياته، ويستحيل القدرة عليه بعد مماته، كإنقاذ غريق أو إخماد حريق .
- 3- أن تطلب من الميت مالا يقدر عليه إلا الله، كالرزق والإنجاب وشفاء الأسقام.

فالصورة الأولى لا يلزم منها اعتقاد فاسد لإمكان قدرته وفعله في قبره، وهو ما وردت به آثار، والثانية يلزم منها أن للميت قدرة خارقة وتدبير لاستحالة قدرته وفعله خاج قبره، والثالثة عبادة محضة، ومن هنا كانت الأولى محرمة على الأرجح، والثانية خارقة للربوبية فقط، والثالثة خارقة للتوحيدين معًا.

المسألة السادسة: وقفة موجزة مع آية والذين تدعون من دونه.

قال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِير إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

وهذه الآية هي عُمدة الباب عند المُكفرين، لذا لابد من تخصيصها بوقفة موجزة، وإن كان في فَهِمِ ما تَقَدم كفاية عن المطلوب.

أولًا: الدعاء الوارد في هذه الآية هو الدعاء الشرعي، لا اللغوي، بدليل ربطه بالشرك بالله في آخر الآية:﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

ثانيًا: بتأمل قوله تعالى:﴿لَا تَجْعَلُوا **دُعَاءَ الرَّسُولِ** بَيْنَكُمْ **كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ** بَعْضًا﴾ تعلم وجوب قصر الدعاء في الآية الأولى على المعنى الشرعي؛ لإخراج الدعاء اللُغوي الوارد في هذه الآية، وإلا كان دعاء بعضنا بعضًا من الكفر.

ثالثًا : والدعاء الشركي له قيدان، القيد الأول: هو دعاء ما لا يقدر عليه إلا الله، والقيد الثاني: أن يدل على اعتقاد في المدعو.. وهو مقصود الآية؛ لقوله في أولها:﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِير﴾، فعدم الامتلاك ولو قطمير يعني العجز البالغ التام الذي لا قدرة معه ولا مِلك، ودعاء من حالهم هكذا يحدث به الشرك بأحد احتمالين:

الأول: إمّا تسويتهم في التمليك بطلبٍ يدل على هذا كطلب الإنجاب مثلًا، وهذا تحقيقٌ للقيد الأول الخارق للإلوهية؛ قال تعالى :﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

الثاني: وإمّا تسويتهم في التمليك بطلبٍ يستحيل عليهم فعله في الخارج إلا على وجه الأمر والتدبير، كطلب إنقاذ غريق، وهذا تحقيقٌ للقيد الثاني الهادم للربوبية؛ قال تعالى :﴿ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾

رابعًا: ومن هنا فإن طلب الدعاء من النبي قد خَرَجَ عن مضمون الآية من وجهين :

الأول: إنه طلبٌ عادى، وليس من جنس ما لا يملكه إلا الله، ولا يستلزمه.

الثاني: إنَّ الميت وخصوصًا النبي يملك فعلًا الدعاء في قبره ويقدر عليه، والآية مناطها من لا يملك.

الوقفة التاسعة:

مسائل متعلقة بالملائكة والجَانِّ.

وتحتها مسألتان:

المسألة الأولى: حكم طلب الدعاء من الجن؟

المسألة الثانية :حكم طلب الدعاء من الملائكة؟

إنَّ أكبر إشكال يطرحه المُكَفِّرُونَ هو إلزامهم المخالف بعدم تكفير مَنْ طَلَبَ الدعاء من الملائكة والجنِّ، وكأنهم أرادوا الإستدلال بهذا اللازم، باعتبار أنه نظير مسألة البحث، فيكون أصلًا يُرد إليه الخلاف، فإن ثبتَ التكفير به فقد ثَبَتَ تكفير الطالب لدعاء الأموات..وبرغم أني لم أقف على جوابٍ للسلف أو الخلف عن هذا الإشكال، إلا إنني سأحاول الجواب عنه، ومن كان عنده زيادة فلا يبخل عليَّ بها ..

وقبل البيان أردتُ التنبيه على أنَّ هذا الاستدلال فيه مغالطات ظاهرة وهي:

1- إنَّ الأصل المردود إليه يحتاج أصلًا إلى دليلٍ لثبوته، فاللازم المحتج به مفتقر إلى برهان، لذا نقول لهم: ثبتوا العرش أولًا قبل النقش.

2- ومن هنا فإنَّ هذا الاستدلال فيه مصادرة على المطلوب؛ لأنه استدلال على محل النزاع بمحل نزاعٍ آخر كما سيأتي، فكأنما أعاد الخلاف إلى مثله، أو تمَّ الرَّد إلى نظيرٍ مبهم.

3- إنَّ هذا الاستدلال يُعَدُّ خروجًا عن محل النزاع؛ إذ المبحث المتنازع عليه هو حكم الطلب من الميت، وهذا الاستدلال متعلقٌ بالطلب من الحي القادر؛ إذ الملائكة والجن أحياء ولهم قدرة بلا خلاف.

4- ولم يقل المُكَفِّرون يومًا إنَّ مناط تكفير الطالب من الميت هو عدم رؤيتة لجثة الميت، كي يصح قياسهم على مَنْ طلب دعاء الجن وهو لا يرى جُثَثَهم، أو من طلب دعاء الملائكة مع عدم رؤيته أجسامهم..

المسألة الأولى : حكم طلب الدعاء من الجن؟

إنَّ حكم طلب الدعاء من الجنِ مبني على حكم الاستعانة بالجن، والاستعانة بالجن متنازع في حكمها بين السلف والخلف .

أولًا: علماء أجازوا الاستعانة بالجن.

ودليل هؤلاء العلماء أن الصحابة استعانوا بالجن فيما يقدرون عليه، وذكروا على هذا روايتين..

- قال ابن تيمية:" وقد روى عن أبي موسى الأشعرى أنه أبطأ عليه خبر عمر، وكان هناك إمرأة لها قرين من الجن، فسأله عنه، فأخبره أنه ترك عمر يسم إبل الصدقة،
وفي خبر آخر أن عمر أرسل جيشا فقدم شخص إلى المدينة فأخبر أنهم انتصروا على عدوهم وشاع الخبر فسأل عمر عن ذلك، فذكر له، فقال هذا أبو الهيثم بريد المسلمين من الجن ".اه مجموع الفتاوى.

ففي الخبر الأول استعان أبو موسى الأشعري بالجن، وفي الثاني استعان أحدهم بالجن في عهد عمر.

- قال ابن تيمية :" واستخدام الإنس لهم -أي للجن- مثل استخدام الإنس للإنس بشيء، منهم من يستخدمهم للمحرمات من الفواحش والظلم والشرك والقول على الله بلا علم، وقد يظنون ذلك من كرامات الصالحين وإنما هو من أفعال الشياطين، ومنهم من يستخدمهم في أمور مباحة إما إحضار ماله أو دلالة على مكان فيه مال، ليس له مالك معصوم، أو دفع من يؤذيه ونحو ذلك فهذا كاستعانة الإنس بعضهم ببعض في ذلك
والنوع الثالث أن يستعملهم في طاعة الله ورسوله كما يستعمل الإنس في مثل ذلك فيأمرهم بما أمر الله به ورسوله وينهاهم عما نهاهم الله عنه ورسوله كما يأمر الإنس وينهاهم وهذه حال نبينا وحال من اتبعه واقتدى به من أمته وهم أفضل الخلق فإنهم يأمرون الإنس والجن بما أمرهم الله به ورسوله وينهون الإنس والجن عما نهاهم الله عنه ورسوله".اه دقائق التفسير

- وقال ابن تيمية:" الجن مع الإنس على أحوال : فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه ويأمر الإنس بذلك فهذا من أفضل أولياء الله تعالى وهو في ذلك من خلفاء الرسول صلى الله عليه و سلم ونوابه ومن كان يستعمل الجن في أمور مباحة له فهو كمن استعمل الإنس في

أمور مباحة له ..ومن كان يستعمل الجن فيما ينهى الله عنه ورسوله إما في الشرك وإما في قتل معصوم الدم أو في العدوان عليهم بغير القتل كتمريضه وإنسائه العلم وغير ذلك وإما في فاحشة كجلب من يطلب منه الفاحشة فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان ثم إن استعان بهم على الكفر فهو كافر وإن استعان بهم على المعاصي فهو عاص إما فاسق وإما مذنب غير فاسق".اهـ الفرق بين أولياء الرحمن والشيطان.

والحاصل إجازة ابن تيمية للاستعانة بالجن في المباحات، وأقدم من استعمل الجن من العلماء هو الإمام أبو يعقوب الأذرعي..

- قال ابن عساكر في تاريخ دمشق :" أخبرنا أبو محمد هبة الله بن الأكفاني وعبد الكريم بن حمزة قالا نا أبو محمد عبد العزيز بن أحمد نا أبو محمد بن أبي نصر حدثني أبو يعقوب الأذرعي قال خلوت في بعض الأوقات فتفكرت وقلت ليت شعري إلى ما نصير فسمعت قائلا يقول إلى رب كريم، قال وكان أبو يعقوب لا يكاد تفارقه قارورة البول؛ لِعِلَّةٍ كانت به، فحدثني أبو يعقوب أنه دفعها إلى بعض، وقال من كان يخدمه لغسلها أو لإراقة ما فيها، فاحتاج إليها ولم يحضر من يناوله إياها، فقال أسأل من حضر من إخواننا المسلمين من الجن أن يناولنيها فنولها".اهـ تاريخ ابن عساكر

فأبو يعقوب في هذا الأثر طَلَبَ من الجنّ إحضار قارورة البول، فأحضروها له، وأبو يعقوب الاذرعي هو من علماء القرن الرابع –ت 344هـ – وقد أثنى عليه ابن كثير والذهبي وابن عساكر.

ثانيًا: علماء حرموا الاستعانة بالجن.

وذهب آخرون إلى تحريم الاستعانة بالجن مطلقًا، ونسبوا هذا القول إلى الإمام أحمد..

- قال ابن مفلح:" قَالَ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي رِوَايَة الْبِرْوَاطِيّ فِي الرَّجُل يَزْعُم أَنَّهُ يُعَالِج الْمَجْنُونَ مِنْ الصَّرَع بِالرُّقَى وَالْعَزَائِم وَيَزْعُم أَنَّهُ يُخَاطِب الْجِنَّ وَيُكَلِّمُهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْدِمُهُ قَالَ مَا أُحِبُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَفْعَلهُ ، تَرْكُهُ أَحَبُّ إلَيَّ ".اهـ الآداب الشرعية.

- وقال ابن قدامة :" فأما الذي يعزم على المصروع ويزعم أنه يجمع الجن ويأمرها فتطيعه, فهذا لا يدخل في هذا الحكم ظاهرًا (أى الكفر)".اهـ لمغني

- قال البهوتي:" وَأَمَّا الَّذِي يُعَزِّمُ عَلَى الْجِنِّ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ يَجْمَعُهَا فَتُطِيعهُ فَلَا يَكْفُرُ بِذَلِكَ وَلَا يُقْتَلُ بِهِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي مَعْنَى الْمَنْصُوصِ عَلَى قَتْلِهِ بِالسِّحْرِ وَيُعَزَّرُ تَعْزِيرًا بَلِيغًا دُونَ الْقَتْلِ لِارْتِكَابِهِ مَعْصِيَةً عَظِيمَةً".اهـ كشف القناع

وهذا القول هو الأظهر؛ لأن أدلة القول الأول فيها كلام، وكذلك لم يكن هذا الفعل هو الشائع عن جماهير الصحابة.

أما الطلب من الجن أثناء الرقية الشرعية فهذا جائز، وهو بعيد عن مسألة الاستعانة؛ بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده:" عَنْ يَعْلَى بْنِ مُرَّةَ عَنْ النَّبِيِّ أَنَّهُ أَتَتْهُ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا قَدْ أَصَابَهُ لَمَمٌ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ :اخْرُجْ عَدُوَّ اللَّهِ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ قَالَ : فَبَرَأَ " ..قال الهيثمي في مجمع الزوائد: "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح"

تنبيه:

لابد من التفريق بين مَنْ استعان بالجن وهو يعلم وجودهم حوله، وبين من استعان بهم وهو يعلم عدم وجودهم حوله، فالصورة الأولى هي محل الخلاف السابق، والثانية من الشرك الأكبر؛ لهدمها الربوبية من جهة السمع والقدرة المطلقين.

وقفة: بين الاستعانة بالجن وطلب الدعاء من الأموات:

قلتُ:

1-إنْ جاز أنْ تطلب من الجن إحضار مالٍ كما نَصَّ ابن تيمية أفلا يجوز طلب الدعاء من الجن؟!

2- إنْ جاز أنْ تطلب من الجن الصلاة والصوم كما نصَّ ابن تيمية، أفيكون طلب الدعاء منهم كفرًا؟!

3- إن كان استعان بهم أبو يعقوب في إحضار قارورة، أفلا تكون الاستعانة بهم على عبادة وهي طلب الدعاء أولى..مع القطع بقدرتهم على ذلك؟

4- إنْ ثبت عدم تكفير طالب الدعاء من الجن، أفلا يكون عدم تكفير طالب الدعاء من الميت أولى بحسب طريقة المخالف في الإلزام ..

5-وأخيرًا: إنَّ هذا الاستدلال الذي يلزموننا به هو نفسه حجة عليهم بموجب خلاف العلماء السابق!

المسألة الثانية : حكم طلب الدعاء من الملائكة.

وما قيل في الاستعانة بالجن يُقال أيضًا في الاستعانة بالملائكة؛ بجامع عدم رؤيتهم جميعًا.

وهذه المسألة نخصها ببعض الأمور..

هل الملائكة قادرة على الدعاء لنا؟

الجواب: نعم؛ قال تعالى :﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾

هل يوجد ملائكةٌ حولنا ؟

الجواب: نعم؛ قال رسول الله : "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار، يجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون" متفق عليه.

وصَحَّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ :" مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ ». قَالُوا وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « وَإِيَّاىَ لَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِى عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلاَ يَأْمُرُنِى إِلاَّ بِخَيْرٍ"والحديث أصله في مسلم.

كم عدد الملائكة حول الإنسان ؟

– روى الطبري في تفسيره:" عن كنانة العدوي قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله فقال: يا رسول الله أخبرني عن العبد كم معه من ملك؟ قال: ملك على يمينك على حسناتك، وهو أمينٌ على الذي على الشمال، فإذا عملتَ حسنة كُتِبت عشرًا، وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين: اكتب! قال: لا لعله يستغفر الله ويتوب! فإذا قال ثلاثاً قال: نعم اكتب أراحنا الله منه، فبئس القرين، ما أقل مراقبته لله، وأقل استحياءَه منّا! يقول الله:(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)، وملكان من بين يديك ومن خلفك، يقول الله:(له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) ، وملك قابض على ناصيتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبَّرت على الله قصمك . وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصَّلاة على محمد. وملك قائم على فِيكَ لا يدع الحيّة تدخل في فيك، وملكان على عينيك. فهؤلاء عشرة أملاك على كلّ آدميّ، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار، [لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار] فهؤلاء عشرون ملكًا على كل آدمي، وإبليس بالنهار وولده بالليل".اهـ

وهذ الحديث تناقله العديد عن الطبري دون تضعيف، والحق أنَّ في صحته كلام.

هل يمكن لإنسان غير الأنبياء سماع الملائكة في الدنيا؟

الجواب: نعم ؛

- روى الطبراني في المعجم الكبير:" عن قتادة : أن الملائكة كان تصافح عمران بن حصين حتى اكتوى".اهـ

والحديث وإنْ كان به ضعف إلا أن له رواية في صحيح مسلم بنفس المعنى تؤيدة، وحاصله أنَّ الصحابي الجليل عمران ابن الحصين كان يسمع كلام الملائكة، وكانت الملائكة تُسلم عليه، حتى اكتوى، وقد نُهِيَ عن العلاج بالكي..

- قال النووي في شرحه على مسلم:" وَمَعْنَى الْحَدِيث أَنَّ عِمْرَان بْن الْحُصَيْن رَضِيَ اللَّه عَنْهُ كَانَتْ بِهِ بَوَاسِير فَكَانَ يَصْبِر عَلَى الْمُهِمَّات وَكَانَتْ الْمَلَائِكَة تُسَلِّم عَلَيْهِ ، فَاكْتَوَى فَانْقَطَعَ سَلَامهمْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ تَرَكَ الْكَيّ فَعَادَ سَلَامهمْ عَلَيْه ." .اهـ

قال ابن حجر:" وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ عِمْرَان بْن حُصَيْنٍ أَنَّهُ كَانَ يَسْمَع كَلَام الْمَلَائِكَة ".اهـ فتح الباري.

هل يمكن لإنسان غير الأنبياء رؤية الملائكة في الدنيا؟

الجواب: نعم ؛

يراهم المحضتر قبل موته وقد يكلمهم، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾

- قال ابن كثير في تفسير الآية:"وذلك يَصْدُق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، وغضب الجبار".اهـ

- قال ابن القيم :"الملائكة تنزل على المحتضر وتجلس قريبا منه ويشاهدهم عيانا ويتحدثون عنده ومعهم الأكفان والحنوط إما من الجنة وإما من النار ويؤمنون على دعاء الحاضرين بالخير والشر وقد يسلمون على المحتضر ويرد عليهم تاره بلفظه تارة باشارته وتاره بقلبه حيث لا يتمكن من نطق ولا إشارة وقد سمع بعض المحتضرين يقول أهلا وسهلا ومرحبا".اهـ الروح

- ونقل القرطبي عن أبي حامد الغزالي قوله:"وربما كشف للميت عن الأمر الملكوتي قبل أن يغرغر فعاين الملائكة على حسب حقيقة عمله، فإن كان لسانه منطلقا حدث بوجودهم".اهـ التذكرة بأحوال الموتى.

وقفة: بين طلب الدعاء من الملائكة وطلبه من الأموات:

1-إن كانت الملائكة تُسَلِم على عمران ابن الحصين ويسمع كلامهم، فبأي وجهٍ يَكْفُر إنْ طَلَبَ منهم الدعاء؟!

2- وإن كان المحتضر يرى الملائكة حوله، فما الكفر الذي اقترفه إنْ طلب منهم الدعاء؟

3- وإن تأول أحد الحضور حول المحتضر فطلب الدعاء من الملائكة؛ بعلة قطعية وجودهم، فبأي وجهٍ يَكْفر، وهو طلبٌ من الحي القادر الموجود؟

4- إن كان مناط الكفر هو عدم رؤيتهم؛ فنفس المناط موجود في الجن، وقد مَرَّ معنا ذِكر مَنْ أباحوا ذلك.

5- فلا فرق البتة بين طلب الدعاء من الجن، وبين طلبه من الملائكة.

6-إنَّ طلب الدعاء من الميت يجب أن يكون أخطر من طلبه من الجن والملائكة؛ باعتبار أنَّ المتأخر ذكرهم أحياء قادرون يسمعون، أما الأموات ففي سمعهم نزاع، وفي استجابتهم نزاع.

7-طلب الدعاء من الملائكة على الصورة السادسة لا يوجد فيه أي خرق للربوبية والألوهية.

وأخيرً:

لابد من التفريق بين مَنْ طلب الدعاء مِنَ الملائكة وهو يعلم وجودهم حوله، وبين من طلبه منهم وهو يعلم عدم وجودهم حوله، فالصورة الأولى هي محل كلامنا السابق، والثانية من الشرك الأكبر؛ لهدمها الربوبية من جهة السمع والقدرة المطلقين.

الوقفة العاشرة:

الشفاعة وأحكامها

وتحتها ستة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الشفاعة ومتعلقاته.

المطلب الثاني: الشفاعة المباحة.

المطلب الثالث: علاقة الشفاعة بالعبادة.

المطلب الرابع: بيان حقيقة طلب الشفاعة الشركية.

المطلب الخامس: حقيقة اتخاذ وسائط

المطلب السادس: تفريق ابن تيمية بين صور طلب الدعاء.

المطلب الأول: تعريف الشفاعة ومتعلقاته.

لا يوجد خلاف جوهري بين تعريف الشفاعة لغة وشرعًا.

والشفاعة هي: الطلب والدعاء للغير.

والشفيع والشافع بمعنى واحد: وهو الداعي أو الطالب لغيره.

والمشفوع له: هو الذي طلب مِنْ الشفيع أنّ يشفع له .

والمشفوع عنده : هو الذي يَرْفَعُ له الشفيع طلب المشفوع له.

- قال ابن سيدة:"وتَشَفَّع:طلب، والشَّفيع: الشافِع، والجمعُ شُفَعاء.".اهـ المحكم والمحيط

- قال الأزهري:" الشافع: الطالب لغيره ..واسم الطالب شفِيع".اهـ تهذيب اللغة

- قال ابن منظور:"والشَّفاعةُ كلام الشَّفِيعِ لِلْمَلِكِ في حاجة يسأَلُها لغيره وشَفَعَ إِليه في معنى طَلَبَ إِليه والشَّافِعُ الطالب لغيره ".اهـ لسان العرب

- قال الزبيدي:" الشَّفْعُ والشَّفاعَة : الدُّعاء".اهـ تاج العروس

- قال ابن منظور:" وروي عن المبرد وثعلب أَنهما قالا في قوله تعالى (مَنْ ذا الذي يَشْفَعُ عنده إِلاّ بإِذنه) قالا الشفاعة الدُّعاءُ ههنا ".اهـ لسان العرب

- قال ابن تيمية :"والشفاعة هى الدعاء".اهـ مجموع الفتاوى.

1- والحاصل إنَّ مسألة طلب الشفاعة من الأموات هي هي مسألة طلب الدعاء من الأموات؛ إلا أن العرب قديمًا كانت تُسَمِّي طلب الدعاء شفاعة، أمَّا نحن المتأخرون فنسميه طلب دعاء وحسب، فصارت هي نفس المسألة لكن باستخدام لفظٍ آخر، ومن هنا فإنَّ كل ما قررناه عاليه من صور للمسألة وأحكامها ينطبق حينئذٍ على مَنْ طلب شفاعة الأموات.

2- والشفاعة بهذا المعنى ليست من اختصاص الله، فلا يُقال عن الله إنّه شفيع يدعو لغيره، ولا من أسمائه الشافع الذي يطلب من غيره، فهذا أمرٌ بشري محض، قال تعالى:" ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾

المطلب الثاني: الشفاعة المباحة.

الشفاعة في الدنيا: وطلب الشفاعة في الدنيا بمعنى طلب الدعاء جائز، وقد فعله الصحابة..

- قال ابن تيمية :" لكن هذا الإستسقاء والإستشفاع والتوسل به وبغيره كان يكون فى حياته بمعنى أنهم يطلبون منه الدعاء فيدعو لهم فكان توسلهم بدعائه والإستشفاع به طلب شفاعته **والشفاعة دعاء**".اهـ مجموع الفتاوى .

وقال ابن تيمية:" أما دعاؤه وشفاعته -أي النبي- فى الدنيا فلم ينكره أحد من أهل القبلة ".اهـ الفتاوى.

الشفاعة في الآخرة: والشفاعة يوم القيامة جائزة للنبي والملائكة،

قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ، وفي صحيح البحاري:" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضى الله عنه- أَنَّهُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ « لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ »[(1)]

شروط قبول الشفاعة يوم القيامة: ولها شرطان:

الأول: إذن الله للشفيع أنْ يشفع، قال تعالى:﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾

والثاني: رضا الله عن المشفوع له، قال تعالى:﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾

---

(1) - حصل خلاف بين أهل السنة والمعتزلة في ماهية الشفاعة، ومن له أحقية الشفاعة، فالشفاعة عند أهل السنة هي طلب عفو وتكون لأصحاب الكبائر من عصاة الموحدين، وعند المعتزلة هي طلب زيادة درجات الموحدين في الجنة، والموحد عندهم هو من لم يفعل الكبائر، وقد ذهبوا إلى هذا القول كي لا يتعارض مع قولهم بالمنزلة بين المنزلتين.

الشفاعة لله وحده:

والشفاعة لله وحده يوم القيامة تعني أنَّه المالك الوحيد يومئذٍ اعطاء الإذن لبعض البشر أنْ يشفعوا ويطلبوا، وهو أيضًا المالك الوحيد إجابة ما طلبوا؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾
أما الشفاعة في الدنيا فيملكها ملوك الأرض بإذنهم للمقربين منهم أنْ يشفعوا في عامة الشعب.

- قال ابن عاشور في تفسيره:" { لله الشفاعة } .. أي هو مالك إجابة شفاعة الشفعاء ".اهـ
- قال السمرقندي في تفسيره:"{قُل لِلَّهِ الشفاعة جَمِيعاً} أي: قل يا محمد: لله الأمر والإذن في الشفاعة".اهـ
- قال أبو حيان في تفسيره:" { قل لله الشفاعة جميعاً} : فهو مالكها ، يأذن فيها لمن يشاء".اهـ
- قال الألوسي في تفسيره :"قُل لِلَّهِ الشفاعة جَمِيعاً .. والمعنى أنه تعالى مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة ما إلا أن يكون المشفوع مرتضى والشفيع مأذوناً له".اهـ

ومن هنا فإنَّ وجه التشريك في الشفاعة هو تسوية مخلوقٌ بالله، بأن تعتقد أنَّ غير الله يملك الإذن للشفعاء يوم القيامة ويملك إجابتهم كما يملك الله ذلك، وهذا مالم يقله أحدٌ من العالمين حتى كفار العرب، وسيأتي بعد قليل بيان الشفاعة الشركية عندهم.

المطلب الثالث: علاقة الشفاعة بالعبادة.

وعلاقة الشفاعة بالعبادة كعلاقة الوسائل بالغايات، فإن الشفاعة كانت هي الغاية التي يرنوها المشركون من وراء عبادتهم للآلهة، وليس شركهم هو نفسه طلب الشفاعة والدعاء، بل كان عبادتهم للشفعاء، ويتضح ذلك بالنظر في غايتهم الآخرى من عبادة الأصنام، وهي التقرب لله زلفى، قال تعالى:﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، فليس شركهم هنا أيضًا هو طلب التقرب لله، بل هذه هي الغاية، والشرك حدث بالوسيلة التي اتخذوها لتحقيق هذه الغاية ألا وهي عبادتهم إياها، فأخطأوا وضلوا؛ إذ الغايات الشرعية لابد لها من وسائل شرعية، والكلام نفسه في الشفاعة؛ كونها الغاية الثانية من عبادتهم الأصنام؛ قال تعالى:﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[(1)] ، ومما يدل

(1) – وقد اعترف بعض المُكفرين بالمسألة أنَّ صورة طلب الدعاء لم تكُ موجودة عند المشركين الأوائل، إنّما هي صورة حادثة، لم يكُ لها مثالٌ سابق في الأمم المتقدمة؛ لأن الحادث في الأمم السابقة هو عبادة الشفعاء، لا طلب الدعاء والشفاعة منهم؛ قال الشيخ صالح آل الشيخ وهو من أبرز المكفرين بالمسألة:"ما كان اهل الجاهلية يفعلونه، وإنما كانوا يتقربون ليدعوا لهم، لكن أن يطلب من الميت هذا بدعة ما كانت اصلا موجودة لا عند الجاهلين ولا عند المسلمين فحدثت فهي بدعة ولا شك، ولكنها بدعة شركية كفرية ".اهـ

كذلك على أنَّ الشفاعة غايتهم، وأن شركهم هو عبادة الشفعاء؛ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ، لذا نفى الله ملكية آلهتهم للشفاعة كي لا يعبدوها .. والفرق بين دعاء غير الله الوارد في الآية وبين الشفاعة في نفس الآية هو هو الفرق بين الدعاء وطلب الدعاء الذي أطلنا الكلام عنه في غرَّةِ هذا البحث طبقًا لمفاهيم العبادة والشرك.

– قال الرازي في تفسيره:" { وَلاَ تَنفَعُ الشفاعة عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } فلا فائدة لعبادتكم غير الله فإن الله لا يأذن في الشفاعة لمن يعبد غيره".اهـ

– قال الطبري في تفسيره:"وقوله:(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) يقول تعالى ذكره: والذين اتخذوا من دون الله أولياء يَتَوَلَّوْنَهُم، ويعبدونهم من دون الله، يقولون لهم: ما نعبدكم أيها الآلهة إلا لتقربونا إلى الله زُلْفَى، قربة ومنزلة، وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا".اهـ

– قال الشوكاني في تفسيره:" ما يتبع هؤلاء المشركون في إشراكهم بالله ، وجعلهم له أنداداً إلا مجرّد الظن ، والتخمين والحدس ، ولم يكن ذلك عن بصيرة ، بل ظن من ظن من سلفهم أن هذه المعبودات تقرّبهم إلى الله، وأنها تشفع لهم".اهـ

– وقال الطبري في تفسيره:" يقولون(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) فقال الله جلّ ذكره لهم: ما تنفع شفاعة ملائكتي الذين هم عندي لمن شفعوا له إلا من بعد إذني لهم بالشفاعة له ورضاي، فكيف بشفاعة من دونهم، فأعلمهم أن شفاعة ما يعبدون من دونه غير نافعتهم".اهـ

– وقال الشوكاني في تفسيره:" والذين لم يخلصوا العبادة لله ، بل شابوها بعبادة غيره قائلين : ما نعبدهم لشيء من الأشياء إلا ليقرّبونا إلى الله تقريباً ، والضمير في نعبدهم راجع إلى الأشياء التي كانوا يعبدونها من الملائكة ، وعيسى ،والأصنام ، وهم : المرادون بالأولياء ، والمراد بقولهم:"إِلاَّ لِيُقَرّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى" الشفاعة، كما حكاه الواحدي عن المفسرين . قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم : من ربكم وخالقكم، ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء؟ قالوا : الله، فيقال لهم: ما معنى عبادتكم للأصنام؟ قالوا : ليقرّبونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنا عنده".اهـ

– وقال الرازي في تفسيره :" واعلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالاً ، فقالوا نحن لا نعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر وتنفع وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين ، فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله".اهـ[(1)]

– وقال نظام الدين النيسابوري في تفسيره:" **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** .. وتفسير الآية مبني على تفصيل وهو أن مذاهب أهل الشرك اربعة :

أحدها قولهم إنا نعبد الملائكة والكواكب التي في السماء فهم آلهتنا والله إلههم فالله تعالى قال في إبطال قولهم أنهم لا يملكون في السموات شيئاً كما اعترفتم، ولا في الأرض على خلاف ما زعمتم أن الأرض والارضيات في حكمهم .

وثانيها قول بعضهم إن السموات من الله على سبيل الاستقلال ، وإن الأرضيات منه ولكن بواسطة الكواكب واتصالاتها وانصرافاتها فأبطل معتمد هؤلاء بقوله {وما لهم فيهما من شرك} أي الأرض كالسماء لله لغيره فيها نصيب .

وثالثها قول من قال : التركيبات والحوادث كلها من الله لكن فوض ذلك إلى الكواكب وإعانتها فأشار إلى إبطال معتقد هؤلاء بقوله {وما له منهم من ظهير}

ورابعها مذهب من زعم أنا نعبد الأصنام التي هي صور الملائكة ليشفعوا لنا فبين بطلان مذهبهم بقوله{ولا تنفع الشفاعة }".اهـ

– قال الطبري:" وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ.. والله لا يأذن لأحد من أوليائه في الشفاعة لأحد من الكفرة به وأنتم أهل كفر به أيها المشركون، فكيف تعبدون من تعبدونه من دون الله زعمًا منكم أنكم تعبدونه ليقربكم إلى الله زلفى وليشفع لكم عند ربكم".اهـ

– وقال السمرقندي في تفسيره :" { أَمِ اتخذوا مِن دُونِ الله } { شُفَعَاء } يعني : يعبدون الأصنام ، لكي تشفع لهم ".اهـ

---

(1) - وفي هذا رَدٌ على القبوريين الذين يشترطون في مفهوم العبادة اعتقاد ألوهية المدعو من دون الله، فبعض المشركين الأوائل -وليس كلهم- لم يكونوا يعبدون الأصنام لأنها آلهة تضر وتنفع، بل هي عندهم مجرد صور لرجال أموات يشفعون..

المطلب الرابع: بيان حقيقة طلب الشفاعة الشركية.

وهذه هي الصورة الخامسة من صور طلب الدعاء من الميت، والتي أرجأنا الكلام عنها في الوقفة الرابعة أعلاه، والحديث ههنا عن الشفاعة الشركية التي كان يعتقدها مشركو العرب،

وهي أن يطلب الطالب من الميت الشفاعة (=أو الدعاء)، وهو يعتقد ..

1- أنَّ الشفاعة عند الله كشفاعة البشر عند بعضهم البعض، ومنها شفاعة الأمراء عند الملوك.

2- فالطلب من الشفعاء أنفع من الطلب من الله مباشرة، لأن الله عَيَّنَ وسطاء يرفعون له الحوائج، ودعاء الله مباشرة لا يجدي دون هذه الوسائط، كما أنَّ الوصول لملوك الدنيا مستحيل دون وسائط.

3- والشفعاء لهم حق على الله، كشفاعة مَنْ لهم جاه ومنزلة عند السلاطين.

4- والله لا يرد شفاعتهم حتى وإن طلبوا منه ما لا يريد، وهذا تقييد لإرادة الله، ومثال ذلك : لو اعتقد أحدهم أنَّ الله لا يريد أنْ يغفر لفلان، لكن لو طلب الميت منه ذلك فسيغفر له.

5- فالشافع شفاعتة واجبة على الله تعالى دون إذنه سبحانه ومشيئته ورضاه، لذا أكد القرآن أكثر من مرة أنَّه لا يشفع أحدٌ عنده رغمًا عنه، بل لابد من إذنه ورضاه،

6- فقد سأل نوحٌ ربه الشفاعة في ابنه فلم يعطها؛ لأنه فقد شرط الرضى على الابن، ولذا قال:﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، وهذا إبراهيم خليل الله لم تنفع شفاعته في أبيه، وبعض الجهال يظنون أن للأنبياء حقاً عند ربهم لا يرد.

وبهذا النحو من تفسير الشفاعة الشركية جاء كلام العلماء..

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾

- قال ابن تيمية:" فنفي أن يكون لغيره معه ملك أو شريك في الملك أو مظاهرة له ولم يثبت من الشفاعة النافعة إلا ما كان بإذنه وهذه الشفاعة التي يؤمن بها المؤمنين كشفاعة نبينا محمد صلى الله عليه و سلم يوم القيامة فإنه بإتفاق أهل السنة والجماعة له شفاعات في القيامة حتى يشفع في أهل الكبائر من أمته كما استفاضت بذلك الأحاديث الصحيحة كما كان يدعو ويشفع لهم في حياته وكذلك يشفع غيره ممن يأذن الله له في الشفاعة لكن ليست هي الشفاعة التي يثبتها أصناف المشركين من غير أهل الكتاب والصابئين ومن ضاهاهم من أهل الكتاب كالنصارى ومن ضاهاهم من هذه الأمة كالمتفلسفة والملاحدة والإسماعلية وكأهال المضنون به وغيرهم **فإنهم جعلوا الشفاعة تنفع بدون دعاء الشافع لله وبدون إذن الرب له في الشفاعة كما تقدم** والله تعالى يقول {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه}وقال تعالى {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى}".اهـ درء تعارض العقل والنقل

- قال ابن تيمية:" وقال: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ} فهذه الشفاعة التي كان المشركون يثبتونها أبطلها القرآن في غير موضع، وهي كشفاعة المخلوق عند المخلوق بغير إذنه، فإن هذا الشافع شريك للمشفوع إليه، فإنه طلب منه ما لم يكن يريد أن يفعله، فيحتاج لقضاء حق الشفيع أن يفعله، فالشفيع بغير إذن المشفوع إليه شريك له، والله تعالى لا شريك له، ولهذا قال: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} فلو شفع أحد بغير إذنه شفاعة نافعة مقبولة كان شريكًا له" .اهـ كتاب: قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق.

- وقال ابن تيمية:"نفي الشفاعة التي أثبتها أهل الشرك، ومن شابههم من أهل البدع، من أهل الكتاب والمسلمين، الذين **يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه،** كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل المشفوع إليه شفاعة الشافع لحاجته إليه رغبة ورهبة، كما يعامل المخلوقُ المخلوق بالمعاوضة .فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين، ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون: هؤلاء خواص الله، فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا، كما يُتوَسل إلى الملوك بخواصِّهم لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم، فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك، وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبة ورهبة .فأنكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى :مَنْ ذا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بإذْنه... فهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا الى الله وصوروا تماثيلهم فعبدوهم كذلك وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم المشركين عليها وكفرهم بها".اهـ قاعدة جلية في التوسل والوسيلة.

- وقال ابن عاشور في تفسيره:"{من ذا الذي يشفع عنده ألا بإذنه}...بطل حق الإدلال عليه والشفاعة عنده التي لا تردّ بالالتزام، لأنّ الإدلال من شأن المساوي والمقارب، والشفاعة إدلال، وهذا إبطال لمعتقد معظم مشركي العرب..والمعنى أنّه لا يشفع عنده أحد بحق وإدلال لأنّ المخلوقات كلها ملكُه ، ولكن يشفع عنده من أراد هُو أن يُظهر كرامته عنده فيأذَنَه بأن يشفع فيمن أراد هو العفوَ عنه".اهـ

- وقال ابن تيمية :" فيقال الشفاعة المنفية هى الشفاعة المعروفة عند الناس عند الإطلاق وهى أن يشفع الشفيع الى غيره ابتداء فيقبل شفاعته، فأما إذا أذن له فى أن يشفع فشفع لم يكن مستقلا بالشفاعة بل يكون مطيعا له أى تابعا له فى الشفاعة وتكون شفاعته مقبولة ويكون الأمر كله للآمر المسؤل وقد ثبت بنص القرآن فى غير آيه أن أحدا لا يشفع عنده إلا بإذنه كما قال تعالى من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه وقال ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له وقال ولا يشفعون الا لمن ارتضى وأمثال ذلك والذى يبيين أن هذه هى الشفاعة المنفية أنه قال وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون وقال تعالى الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع فأخبر أنه ليس لهم من دون الله ولى ولا شفيع وأما نفى الشفاعة بدون إذنه فإن الشفاعة إذا كانت بإذنه لم تكن من دونه كما أن الولاية التى بإذنه ليست من دونه كما قال تعالى إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون".اهـ مجموع الفتاوى

- وقال النسفي في تفسيره:" { مَن ذَا الذى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ } ليس لأحد أن يشفع عنده إلا بإذنه وهو بيان لملكوته وكبريائه ، وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام ، وفيه رد لزعم الكفار أن الأصنام تشفع لهم".اهـ

- قال الشنقيطي في تفسيره :" قوله تعالى:{وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} الآية ظاهر هذه الآية عدم قبول الشفاعة مطلقاً يوم القيامة ولكنه بين في مواضع آخر أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار، والشفاعة لغيرهم بدون إذن رب السموات والأرض، أما الشفاعة للمؤمنين بإذنه فهي ثابتة بالكتاب ، والسنة ، والإجماع . فنص على عدم الشفاعة للكفار بقوله:{ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى }، وقد قال:{وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر}، وقال تعالى عنهم مقرراً له:{ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ }، وقال:{فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشافعين}، إلى غير ذلك من الآيات .وقال في الشفاعة بدون إذنه : { مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ }، وقال:{وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السماوات لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ الله لِمَن يَشَآءُ ويرضى} وقال:{يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً} إلى غير ذلك من الآيات وادعاء شفعاء عند الله للكفار أو بغير إذنه من أنواع الكفر به جل وعلا، كما صرح بذلك في قوله:{وَيَقُولُونَ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ } .".اهـ

- وقال ابن القيم:" وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده : هم الرسل والملائكة المقربون وهم عبيد محض لا يسبقونه بالقول ولا يتقدمون بين يديه ولا يفعلون شيئا إلا بعد إذنه لهم وأمرهم ولا سيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئا فهم مملوكون مربوبون أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه فإذا أشرك بهم المشرك واتخذهم شفعاء من دونه ظنا منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه وما يجب له ويمتنع عليه فإن هذا محال ممتنع شبيه قياس الرب تعالى على الملوك والكبراء حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج وبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق والرب والمربوب والسيد والعبد والمالك والمملوك والغني والفقير والذي لا حاجة به إلى أحد قط والمحتاج من كل وجه إلى غيره

فالشفعاء عند المخلوقين : هم شركاؤهم فإن قيام مصالحهم بهم وهم أعوانهم وأنصارهم الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع لأنهم يخافون أن يردوا شفاعتهم فتنتقض طاعتهم لهم ويذهبون إلى غيرهم فلا يجدون بدا من قبول شفاعتهم على الكره والرضى فأما الغني الذي غناه من لوازم ذاته وكل ما سواه فقير إليه بذاته وكل من في السموات والأرض عبيد له مقهورون بقهره مصرفون بمشيئته لو أهلكهم جميعا لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذرة قال تعالى : لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما والله على كل شيء قدير وقال سبحانه في سيدة آى القرآن آية الكرسي: له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه وقال : قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده وأن أحدا لا يشفع عنده إلا بإذنه فإنه ليس بشريك بل مملوك محض بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض فتبين أن الشفاعة التي نفاها الله سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس ويفعلها بعضهم مع بعض ولهذا يطلق نفيها تارة بناء على أنها هي المعروفة المشاهدة عند الناس ويقيدها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه فإنه الذي أذن والذي قبل والذي رضي عن المشفوع والذي وفقه لفعل ما يستحق به الشفاعة".اهـ اغاثة اللهفان

- وقال أبو حيان في البحر المحيط:" قال تعالى : { ولا تنفع الشفاعة عنده إلاَّ لمن أذن له } ...وقيل : المراد العموم ، والمعنى إن انتداب الشافع وتحكمه على كره المشفوع عنده لا يكون يوم القيامة البتة ".اهـ

- وقال ابن تيمية :" والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه فهو شريك له فى حصول المطلوب ، والله تعالى لا شريك له ، كما قال سبحانه : قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ".اه مجموع الفتاوى

- وفي تفسير الظلال:" {ما من شفيع إلا من بعد إذنه} ..وهذا يواجه ما كانوا يعتقدونه من أن للملائكة التي يعبدون تماثيلها شفاعة لا ترد عند الله".اه

- وقال ابن تيمية:" ولا عند الذي غلا فيه وأشرك به واتخذه ندًّا لله يحبه كحب الله واتخذه شفيعًا يظن أنه إذا استشفع به يشفع له بغير إذن أو اتخذه قربانا يظن أنه إذا عبده قربه إلى الله فهذه كلها ظنون المشركين قال تعالى {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض} وقال تعالى { والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى".اه الرد على الإخنائي.

- وقال ابن تيمية :" وأصل ضلال المشركين أنهم ظنوا أن الشفاعة عند الله كالشفاعة عند غيره وهذا أصل ضلال النصارى أيضا قال تعالى ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون وأمثال هذا في القرآن كثير فمن ظن أن الشفاعة المعهودة من الخلق للخلق تنفع عند الله مثل أن يشفع الإنسان عند من يرجوه المشفوع إليه أو يخافه كما يشفع عند الملك ابنه أو أخوه أو أعوانه أو نظراؤه الذين يخافهم أو يرجوهم فيجب سؤالهم لأجل رجائه وخوفه منهم فيمن يشفعون به عنده وإن كان الملك أو الأمير أو غيرهما يكره الشفاعة فيمن شفعوا فيه فيشفعهم فيه على كراهة منه ويشفعون عنده أيضا بغير إذنه فالله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه فلا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ولا يشفع أحد في أحد إلا لمن أذن الله للشفيع أن يشفع فيه فإذا أذن للشفيع شفع وإن لم يسأله الشفيع ولو سأل الشفيع الشفاعة ولم يأذن الله له لم تنفع شفاعته كما لم تنفع شفاعة نوح في ابنه ولا إبراهيم في أبيه".اه كتاب الاستغاثة.

- وقال ابن تيمية:" أما توحيد الربوبية فقد أقر به المشركون و كانوا يعبدون مع الله غيره و يحبونهم كما يحبونه فكان ذلك التوحيد الذي هو توحيد الربوبية حجة عليهم فإذا كان الله هو رب كل شيء و مليكه و لا خالق و لا رازق إلا هو فلماذا يعبدون غيره معه ؟! و ليس له عليهم خلق و لا رزق ، و لا بيده لهم منع و لا عطاء بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضرا و لانفعا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا. فإن قالوا ليشفع ، فقد قال الله " من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه " فلا يشفع من له شفاعة من الملائكة و النبيين إلا باذنه ، و أما قبورهم و ما نصب عليها من قباب و أنصاب أو تماثيلهم التى مثلت على صورهم مجسدة أو مرقومة فجعل الاستشفاع بها استشفاعا بهم فهذا باطل عقلا و شرعا فإنها لا شفاعة لها بحال و لا لسائر الأصنام التى عملت للكواكب و الجن و الصالحين و غيرهم. وإذا كان الله لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ولا يشفعون إلا لمن ارتضى : فما بقي الشفعاء شركاء كشفاعة المخلوق عند المخلوق ، فإن المخلوق يشفع عنده نظيره أو من هو أعلى منه أو دونه بدون إذن المشفوع إليه ، ويقبل المشفوع إليه ولا بد شفاعته : إما لرغبته إليه أو فيما عنده من قوة أو سبب ينفعه به أو يدفع عنه ما يخشاه وإما لرهبته منه وإما لمحبته إياه وإما للمعاوضة بينهما والمعاونة وإما لغير ذلك من الأسباب . وتكون شفاعة الشفيع : هي التي حركت إرادة المشفوع إليه وجعلته مريدا للشفاعة بعد أن لم يكن مريدا لها ، كأمر الآمر الذي يؤثر في المأمور ، فيفعل ما أمره به بعد أن لم يكن مريدا لفعله، وكذلك سؤال المخلوق للمخلوق ، فإنه قد يكون محركا له إلى فعل ما سأله، فالشفيع كما أنه شافع للطالب شفاعته فى الطلب ، فهو أيضا قد شفع المشفوع إليه فبشفاعته صار المشفوع إليه فاعلا للمطلوب فقد شفع الطالب و المطلوب ، والله تعالى وتر لا يشفعه أحد فلا يشفع عنده أحد إلا باذنه فالأمر كله إليه وحده ، فلا شريك له بوجه و لهذا ذكر سبحانه نفى ذلك فى آية الكرسي التى فيها تقرير التوحيد فقال " له ما فى السموات و ما فى الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه"

و سيد الشفعاء صلى الله عليه و سلم يوم القيامة إذا سجد و حمد ربه يقال له ارفع رأسك و قل يسمع وسل تعطه و اشفع تشفع فيحد له حدا فيدخلهم الجنة فالأمر كله لله كما قال " قل إن الأمر كله لله"، وقال لرسوله"ليس لك من الأمر شيء"، وقال :" ألا له الخلق و الأمر".اهـ مجموع الفتاوى

والخلاصة:

1- إنَّ طلب الشفاعة من غير الله ليس شركًا على الإطلاق وإلا كَفَرَ الخلق جميعًا يوم القيامة لطلبهم شفاعة النبي، وليس الموت والحياة هو المناط المؤثر في شرك الشفاعة، ولا رؤية الشفيع من عدمه كما مَرَّ معنا في الكلام عن الجن.

2- بل الشفاعة الشركية أصل مناطها هو إيجاب الإجابة على الله، والمرجح في الإجابة هو مجرد إرادة الشافع الذي له حق على الله، وهو ما أدى المشركون إلى عبادته بعد ذلك؛ إذ لو كانت شفاعته مرهونة بإذن الله، وقابلة لرفضه، ما كان لاختصاصهم هذا الشافع تحديدًا بالعبادة معنى.

3- ومن هنا فإن طلب الشفاعة على الوجه السادس محل النزاع قد خرج من الشرك.

4- إنَّ تكفير ابن تيمية بالشفاعة ليس كما يفهمه المُكفرون، بل لها مناط واضح عنده خارج عن محل النزاع .

تنبيه هام :

5- واختصاص الإذن بالشفاعة بيوم القيامة هو من جملة المسائل الخبر التي لا تُعلم إلا بالرسول، ومن ثَمَّ فمن ظن أنَّ الله أَذِنَ للنبي الآن وهو في قبره في أن يشفع، فطلب منه الشفاعة الآن كما يطلبها منه يوم الدين، فغاية ما وقع فيه هو الجهل بوقت الإذن، كمن جهل وقت صلاة الفجر بتباين الخيطين فَصَلَّاهُ قبل ميعاده برؤية الفجر المستطير..فلو كانت الشفاعة من اختصاص الله، لم يكن ليملكها أحدٌ لا يوم الدين ولا غيره، كما أن الله هو الخالق وحده ولا يملك ذلك أحدٌا قط.

6- فالشفاعة مأذونٌ بها في الدنيا ويوم القيامة، وانقطع هذا الإذن بينهما، أي حين الموت، وعليه فمن ظن استمرارية هذا الإذن للنبي بعد مماته كما كان في حياته، فقد أخطأ في مسألة خبرية، خاصة مع ثبوت حياة الأنبياء في قبورهم وسماعهم .

المطلب الخامس: حقيقة اتخاذ وسائط.

ومِنْ أكبر حجج المُكفرين أنَّ طلب الدعاء من الأموات هو اتخاذ وسائط مع الله، يعني أنَّ الميت بدعائه لفلان صار واسطة بينه وبين الله، وهذا الكلام يُطلقونه دون تفصيل في أنواع الوسائط.

أولًا: الوسائط المباحة :

1- مثل طلب الدعاء والشفاعة من الحي القادر، كاتخاذ الصحابة العباس واسطة بينهم وبين الله، ومنه ما جاء في صحيح مسلم عن النبي:"ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه"

2- ومثل اتخاذنا الرُسُلَ وسائط بيننا وبين الله، قال ابن تيمية:"وأما الرسل فقد تبين أنهم هم الوسائط بيننا وبين الله عز و جل فى أمره ونهيه ووعده ووعيده وخبره".اهـ مجموع الفتاوى.

ثانيًا: الوسائط الشركية:

واتخاذ وسائط بين العبد وربه على الوجه الشركي له عدة صور:

الأولى : عبادة الوسائط كي تتوسط له عند الله.

الثانية : طلب الشفاعة من الوسائط على الوجه المتقدم بدون إذنه وإرادته سبحانه.

الثالثة: حاجة الله إلى وسائط ترفع الدعاء له، كما أنك تحتاج إلى واسطة لاستخراج رخصة المرور مثلًا، ومن ثمَّ فإن الطلب من الوسائط أنفع، لأن الطلب المباشر من الله لا يجدي دون واسطة..

– وفي الصورة الأولى؛ قال ابن تيمية: " مَنْ جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَسَائِطَ يَدْعُوهُمْ وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِمْ وَيَسْأَلُهُمْ جَلْبَ الْمَنَافِعِ وَدَفْعَ الْمَضَارِّ مِثْلَ أَنْ يَسْأَلَهُمْ غُفْرَانَ الذَّنْبِ وَهِدَايَةَ الْقُلُوبِ وَتَفْرِيجَ الْكُرُوبِ وَسَدَّ الفاقات : فَهُوَ كَافِرٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ ".اهـ الفتاوى

– وفي الصورة الثانية والثالثة؛ قال ابن تيمية :"وَإِنْ أَثْبَتَهُمْ وَسَائِطَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ – كَالْحُجَّابِ الَّذِينَ بَيْنَ الْمَلِكِ وَرَعِيَّتِهِ – بِحَيْثُ يَكُونُونَ هُمْ يَرْفَعُونَ إلَى اللَّهِ حَوَائِجَ خَلْقِهِ ؛ فَاَللَّهُ إنَّمَا يَهْدِي عِبَادَهُ وَيَرْزُقُهُمْ بِتَوَسُّطِهِمْ ؛ فَالْخَلْقُ يَسْأَلُونَهُمْ وَهُمْ يَسْأَلُونَ اللَّهَ ؛ كَمَا أَنَّ الْوَسَائِطَ عِنْدَ الْمُلُوكِ : يَسْأَلُونَ الْمُلُوكَ الْحَوَائِجَ لِلنَّاسِ ؛ لِقُرْبِهِمْ مِنْهُمْ وَالنَّاسُ يَسْأَلُونَهُمْ ؛ أَدَبًا مِنْهُمْ أَنْ يُبَاشِرُوا سُؤَالَ الْمَلِكِ ؛ أَوْ لِأَنَّ طَلَبَهُمْ مِنْ الْوَسَائِطِ أَنْفَعُ لَهُمْ مِنْ طَلَبِهِمْ مِنْ الْمَلِكِ ؛ لِكَوْنِهِمْ أَقْرَبَ إلَى الْمَلِكِ مِنْ الطَّالِبِ لِلْحَوَائِجِ . فَمَنْ أَثْبَتَهُمْ وَسَائِطَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ : فَهُوَ كَافِرٌ مُشْرِكٌ يَجِبُ أَنْ يُسْتَتَابَ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ . وَهَؤُلَاءِ مُشَبِّهُونَ لِلَّهِ شَبَّهُوا الْمَخْلُوقَ بِالْخَالِقِ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا . وَفِي الْقُرْآنِ مِنْ الرَّدِّ عَلَى هَؤُلَاءِ : مَا لَمْ تَتَّسِعْ لَهُ هَذِهِ الْفَتْوَى . فَإِنَّ الْوَسَائِطَ الَّتِي بَيْنَ الْمُلُوكِ وَبَيْنَ النَّاسِ يَكُونُونَ عَلَى **أَحَدِ وُجُوهٍ ثَلَاثَةٍ** : إمَّا لِإِخْبَارِهِمْ مِنْ أَحْوَالِ النَّاسِ بِمَا لَا يَعْرِفُونَهُ . وَمَنْ قَالَ إنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ أَحْوَالَ عِبَادِهِ حَتَّى يُخْبِرَهُ بِتِلْكَ بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ أَوْ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ غَيْرُهُمْ : فَهُوَ كَافِرٌ بَلْ هُوَ – سُبْحَانَهُ – يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ..

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمَلِكُ عَاجِزًا عَنْ تَدْبِيرِ رَعِيَّتِهِ وَدَفْعِ أَعْدَائِهِ إلَّا بِأَعْوَانِ يُعِينُونَهُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْصَارٍ وَأَعْوَانٍ لِذُلِّهِ وَعَجْزِهِ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ لَهُ ظَهِيرٌ وَلَا وَلِيٌّ مِنْ الذُّلِّ قَالَ تَعَالَى:{قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} وَقَالَ تَعَالَى:{وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} وَكُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ مِنْ الْأَسْبَابِ : فَهُوَ خَالِقُهُ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ فَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ وَكُلُّ مَا سِوَاهُ

فَقِيرٌ إلَيْهِ؛ بِخِلَافِ الْمُلُوكِ الْمُحْتَاجِينَ إلَى ظهرائهم وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ شُرَكَاؤُهُمْ فِي الْمُلْكِ وَاَللَّهُ تَعَالَى : لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ بَلْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ **وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ** : أَنْ يَكُونَ الْمَلِكُ لَيْسَ مُرِيدًا لِنَفْعِ رَعِيَّتِهِ وَالْإِحْسَانِ إلَيْهِمْ وَرَحْمَتِهِمْ : إلَّا بِمُحَرِّكِ يُحَرِّكُهُ مِنْ خَارِجٍ . فَإِذَا خَاطَبَ الْمَلِكُ مَنْ يَنْصَحُهُ وَيُعَظِّمُهُ أَوْ مَنْ يَدُلُّ عَلَيْهِ ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ يَرْجُوهُ وَيَخَافُهُ : تَحَرَّكَتْ إرَادَةُ الْمَلِكِ وَهِمَّتُهُ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ رَعِيَّتِهِ إمَّا لِمَا حَصَلَ فِي قَلْبِهِ مِنْ كَلَامِ النَّاصِحِ الْوَاعِظِ الْمُشِيرِ وَإِمَّا لِمَا يَحْصُلُ مِنْ الرَّغْبَةِ أَوْ الرَّهْبَةِ مِنْ كَلَامِ الْمُدِلِّ عَلَيْهِ . وَاَللَّهُ تَعَالَى : هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَهُوَ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا وَكُلُّ الْأَشْيَاءِ إنَّمَا تَكُونُ بِمَشِيئَتِهِ فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَهُوَ إذَا أَجْرَى نَفْعَ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ : فَجَعَلَ هَذَا يُحْسِنُ إلَى هَذَا وَيَدْعُو لَهُ وَيُشَفَّعُ فِيهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ فَهُوَ الَّذِي خَلَقَ ذَلِكَ كُلَّهُ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ فِي قَلْبِ هَذَا الْمُحْسِنِ الدَّاعِي الشَّافِعِ إرَادَةَ الْإِحْسَانِ وَالدُّعَاءِ وَالشَّفَاعَةِ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي الْوُجُودِ مَنْ يُكْرِهُهُ عَلَى خِلَافِ مُرَادِهِ أَوْ يُعَلِّمُهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَوْ مَنْ يَرْجُوهُ الرَّبُّ وَيَخَافُهُ . وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إنْ شِئْت اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إنْ شِئْت ؛ وَلَكِنْ لِيَعْزِمْ الْمَسْأَلَةَ ؛ فَإِنَّهُ لَا مُكْرِهَ لَهُ } . وَالشُّفَعَاءُ الَّذِينَ يَشْفَعُونَ عِنْدَهُ : لَا يَشْفَعُونَ إلَّا بِإِذْنِهِ كَمَا قَالَ : { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بِإِذْنِهِ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَلَا يَشْفَعُونَ إلَّا لِمَنِ ارْتَضَى } وَقَالَ تَعَالَى : { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ } { وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } . فَبَيَّنَ أَنَّ كُلَّ مَنْ دُعِيَ مِنْ دُونِهِ لَيْسَ لَهُ مُلْكٌ وَلَا شِرْكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَا هُوَ ظَهِيرٌ . وَأَنَّ شَفَاعَتَهُمْ لَا تَنْفَعُ إلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ . وَهَذَا بِخِلَافِ الْمُلُوكِ فَإِنَّ الشَّافِعَ عِنْدَهُمْ قَدْ يَكُونُ لَهُ مُلْكٌ وَقَدْ يَكُونُ شَرِيكًا لَهُمْ فِي الْمُلْكِ وَقَدْ يَكُونُ مُظَاهِرًا لَهُمْ مُعَاوِنًا لَهُمْ عَلَى مُلْكِهِمْ وَهَؤُلَاءِ يُشَفَّعُونَ عِنْدَ الْمُلُوكِ بِغَيْرِ إذْنِ الْمُلُوكِ هُمْ وَغَيْرُهُمْ وَالْمَلِكُ يَقْبَلُ شَفَاعَتَهُمْ: تَارَةً بِحَاجَتِهِ إلَيْهِمْ وَتَارَةً لِخَوْفِهِ مِنْهُمْ وَتَارَةً لِجَزَاءِ إحْسَانِهِمْ إلَيْهِ وَمُكَافَأَتِهِمْ وَلِإِنْعَامِهِمْ عَلَيْهِ ؛ حَتَّى إنَّهُ يَقْبَلُ شَفَاعَةَ وَلَدِهِ وَزَوْجَتِهِ لِذَلِكَ فَإِنَّهُ مُحْتَاجٌ إلَى الزَّوْجَةِ وَإِلَى الْوَلَدِ ؛ حَتَّى لَوْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَلَدُهُ وَزَوْجَتُهُ لَتَضَرَّرَ بِذَلِكَ وَيَقْبَلُ شَفَاعَةَ مَمْلُوكِهِ ؛ فَإِذَا لَمْ يَقْبَلْ شَفَاعَتَهُ ؛ يَخَافُ أَنْ لَا يُطِيعَهُ أَوْ أَنْ يَسْعَى فِي ضَرَرِهِ . وَشَفَاعَةُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ عِنْدَ بَعْضٍ : كُلُّهَا مِنْ هَذَا الْجِنْسِ . فَلَا يَقْبَلُ أَحَدٌ شَفَاعَةَ أَحَدٍ إلَّا لِرَغْبَةِ أَوْ رَهْبَةٍ . وَاَللَّهُ تَعَالَى : لَا يَرْجُو أَحَدًا وَلَا يَخَافُهُ وَلَا يَحْتَاجُ إلَى أَحَدٍ بَلْ هُوَ الْغَنِيُّ قَالَ تَعَالَى : { أَلَا إنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إنْ يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إلَّا يَخْرُصُونَ } إلَى قَوْلِهِ : { قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } . وَالْمُشْرِكُونَ : يَتَّخِذُونَ شُفَعَاءَ مِنْ جِنْسِ مَا يَعْهَدُونَهُ مِنْ الشَّفَاعَةِ قَالَ تَعَالَى : { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ

شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } وَقَالَ تَعَالَى:{ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } وَأَخْبَرَ عَنْ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا :{ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } وَقَالَ تَعَالَى : { وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } وَقَالَ تَعَالَى : { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } . فَأَخْبَرَ أَنَّ مَا يَدَّعِي مِنْ دُونِهِ لَا يَمْلِكُ كَشْفَ ضُرٍّ وَلَا تَحْوِيلَهُ وَأَنَّهُمْ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ وَيَتَقَرَّبُونَ إلَيْهِ . فَهُوَ – سُبْحَانَهُ – قَدْ نَفَى مَا مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ ؛ إلَّا مِنْ الشَّفَاعَةِ بِإِذْنِهِ وَالشَّفَاعَةُ هِيَ الدُّعَاءُ ."اهـ مجموع الفتاوى.

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾

– قال ابن القيم:" فإن المشرك إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم من : من وزير أو ظهير أو عون وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته وكل ما سواه فقير إليه بذاته وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة أولا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم أو لا يكفي عبده وحده أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة كما يشفع المخلوق عند المخلوق فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به وتكثره به من القلة وتعززه به من الذلة أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن ترفع تلك الحاجات إليه كما هو حال ملوك الدنيا وهذا أصل شرك الخلق أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم حتى يرفع الوسائط ذلك أو يظن أن للمخلوق عليه حقا فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه ويتوسل إليه بذلك المخلوق كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم ولا يمكنهم مخالفته وكل هذا تنقص للربوبية وهضم لحقها".اهـ إغاثة اللهفان.

– قال ابن تيمية:" وهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون وأبطلها القرآن رأيت من هؤلاء المتفلسفة نفاة الصفات كابن سينا ومن ضاهاهم..قد أثبتوا هذه الشفاعة الشركية وهذه الوسائط الإفكية.. فإنهم جعلوا الشفاعة تنفع بدون دعاء الشافع لله وبدون إذن الرب له في الشفاعة".اهـ درء تعارض العقل والنقل

– وقال ابن تيمية:" والمقصود هنا أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك".اهـ مجموع الفتاوى

وقفة مُتَمّمَة:

1- إن اتخاذ وسائط يتحقق بالدعاء للغير، وهذا لا يمكن أنْ يكون شركًا مجردًا؛ وإلا كان من خصائص الله، أي من خصائصه سبحانه التوسط عند غيره بدعائه للداعي، وهذا باطل، فبَطُلَ الحكم.

2- لو كان اتخاذ الوسائط شركًا مجردًا لكان اتخاذ الرسول واسطة للشفاعة يوم القيامة من الشرك.

3-وليس مناط الكفر في اتخاذ وسائط هو الموت أو الحياة، فذاك لم يقله أحدٌ من العالمين، وليس المناط أيضًا رؤية الواسطة ، بدليل أنَّ من اتخذ الجن وسائط يَدْعُونَ له، لا يكفر كما مَرَّ معنا .

إشكال:

إنْ قيل إنَّ اتخاذ الميت واسطة يلزم منه أنَّه ينفع، قيل هذا الكلام حق، ولكن..

1- ليس هذا من قِبَلِ المنفعة المُكفرة، فضابط المنفعة الشركية هو النفع بما لا يقدر عليه إلا الله.

2- وقد أثبت الله تحقق النفع إثر توسط بعض الوسطاء؛ قال تعالى:﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ فتوسط الشفيع المأذون له يتحقق به النفع، مما يعني أنَّ هذه النفعية ليست مما اختص به الإله.

3- فإن اعتقد أحدهم أن الميت له نفس النفع فلا يكفر؛ لانتفاء الاختصاص بالله.

المطلب السادس: تفريق ابن تيمية بين صور طلب الدعاء.

لقد فرق ابن تيمية رحمه الله بين طلب الدعاء(=الشفاعة) على الوجه الشركي، وبين طلبه على الوجه السادس الذي ذكرناه أعلاه..

قال ابن تيمية:" وَأَمَّا مَنْ يَأْتِي إلَى قَبْرِ نَبِيٍّ أَوْ صَالِحٍ أَوْ مَنْ يَعْتَقِدُ فِيهِ أَنَّهُ قَبْرُ نَبِيٍّ أَوْ رَجُلٍ صَالِحٍ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَيَسْأَلُهُ وَيَسْتَنْجِدُهُ فَهَذَا عَلَى **ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ**:**إحْدَاهَا** :أَنْ يَسْأَلَهُ حَاجَتَهُ مِثْلُ أَنْ يَسْأَلَهُ أَنْ يُزِيلَ مَرَضَهُ أَوْ مَرَضَ دَوَابِّهِ أَوْ يَقْضِيَ دَيْنَهُ أَوْ يَنْتَقِمَ لَهُ مِنْ عَدُوِّهِ أَوْ يُعَافِيَ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَدَوَابَّهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :فَهَذَا شِرْكٌ صَرِيحٌ يَجِبُ أَنْ يُسْتَتَابَ صَاحِبُهُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ. وَإِنْ قَالَ أَنَا أَسْأَلُهُ لِكَوْنِهِ أَقْرَبَ إلَى اللَّهِ مِنِّي لِيَشْفَعَ لِي فِي هَذِهِ الْأُمُورِ؛ لِأَنِّي أَتَوَسَّلُ إلَى اللَّهِ بِهِ كَمَا يُتَوَسَّلُ إلَى السُّلْطَانِ بِخَوَاصِّهِ وَأَعْوَانِهِ فَهَذَا مِنْ أَفْعَالِ الْمُشْرِكِينَ وَالنَّصَارَى فَإِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ شُفَعَاءَ يَسْتَشْفِعُونَ بِهِمْ فِي مَطَالِبِهِمْ وَكَذَلِكَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا: {مَا نَعْبُدُهُمْ إلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللَّهِ زُلْفَى} وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ

قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ} {قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إلَيْهِ تُرْجَعُونَ} وَقَالَ تَعَالَى: {مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} وَقَالَ تَعَالَى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بِإِذْنِهِ} فَبَيَّنَ الْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ. فَإِنَّ مِنْ عَادَةِ النَّاسِ أَنْ يَسْتَشْفِعُوا إلَى الْكَبِيرِ مِنْ كُبَرَائِهِمْ بِمَنْ يُكَرَّمُ عَلَيْهِ فَيَسْأَلُهُ ذَلِكَ الشَّفِيعُ فَيَقْضِي حَاجَتَهُ: إمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً وَإِمَّا حَيَاءً وَإِمَّا مَوَدَّةً وَإِمَّا غَيْرَ ذَلِكَ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ حَتَّى يَأْذَنَ هُوَ لِلشَّافِعِ فَلَا يَفْعَلُ إلَّا مَا شَاءَ وَشَفَاعَةُ الشَّافِعِ مِنْ إذْنِهِ فَالْأَمْرُ كُلُّهُ لَهُ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ " {لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إنْ شِئْت اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إنْ شِئْت وَلَكِنْ لِيَعْزِمْ الْمَسْأَلَةَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ} فَبَيَّنَ أَنَّ الرَّبَّ سُبْحَانَهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَا يُكْرِهُهُ أَحَدٌ عَلَى مَا اخْتَارَهُ كَمَا قَدْ يُكْرِهُ الشَّافِعُ الْمَشْفُوعَ إلَيْهِ وَكَمَا يُكْرِهُ السَّائِلُ الْمَسْئُولَ إذَا أَلَحَّ عَلَيْهِ وَآذَاهُ بِالْمَسْأَلَةِ. فَالرَّغْبَةُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ إلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ} {وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} وَالرَّهْبَةُ تَكُونُ مِنْ اللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} وَقَالَ تَعَالَى: {فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ} وَقَدْ أَمَرَنَا أَنْ نُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الدُّعَاءِ وَجَعَلَ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ إجَابَةِ دُعَائِنَا وَقَوْلُ كَثِيرٍ مِنْ الضُّلَّالِ: هَذَا أَقْرَبُ إلَى اللَّهِ مِنِّي وَأَنَا بَعِيدٌ مِنْ اللَّهِ لَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَدْعُوَهُ إلَّا بِهَذِهِ الْوَاسِطَةِ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذَا دَعَانِ} وَقَدْ رُوِيَ: أَنَّ الصَّحَابَةَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: رَبُّنَا قَرِيبٌ فَنُنَاجِيه أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيه؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ. وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي سَفَرٍ وَكَانُوا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ " {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا بَلْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا إنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ} وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْعِبَادَ كُلَّهُمْ بِالصَّلَاةِ لَهُ وَمُنَاجَاتِهِ وَأَمَرَ كُلًّا مِنْهُمْ أَنْ يَقُولَ: {إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وَقَدْ أَخْبَرَ عَنْ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا {مَا نَعْبُدُهُمْ إلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللَّهِ زُلْفَى} . ثُمَّ يُقَالُ لِهَذَا الْمُشْرِكِ أَنْتَ إذَا دَعَوْت هَذَا فَإِنْ كُنْت تَظُنُّ أَنَّهُ أَعْلَمُ بِحَالِك وَأَقْدَرُ عَلَى عَطَاءِ سُؤَالِك أَوْ أَرْحَمُ بِك فَهَذَا جَهْلٌ وَضَلَالٌ وَكُفْرٌ وَإِنْ كُنْت تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ وَأَقْدَرُ وَأَرْحَمُ فَلِمَ عَدَلْت عَنْ سُؤَالِهِ إلَى سُؤَالِ غَيْرِهِ؟ أَلَا تَسْمَعُ إلَى مَا خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: " {كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنْ الْقُرْآنِ يَقُولُ: إذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِأَمْرٍ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ: إنِّي أَسْتَخِيرُك بِعِلْمِك

وَأَسْتَقْدِرُك بِقُدْرَتِك وَأَسْأَلُك مِنْ فَضْلِك الْعَظِيمِ فَإِنَّك تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ: إنْ كُنْت تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ وَإِنْ كُنْت تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ – قَالَ – وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ} أَمَرَ الْعَبْدَ أَنْ يَقُولَ: أَسْتَخِيرُك بِعِلْمِك وَأَسْتَقْدِرُك بِقُدْرَتِك وَأَسْأَلُك مِنْ فَضْلِك الْعَظِيمِ. وَإِنْ كُنْت تَعْلَمُ أَنَّهُ أَقْرَبُ إلَى اللَّهِ مِنْك وَأَعْلَى دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْك فَهَذَا حَقٌّ؛ لَكِنْ كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ؛ فَإِنَّهُ إذَا كَانَ أَقْرَبَ مِنْك وَأَعْلَى دَرَجَةً مِنْك فَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنْ يُثِيبَهُ وَيُعْطِيَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُعْطِيك لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّك إذَا دَعَوْته كَانَ اللَّهُ يَقْضِي حَاجَتَك أَعْظَمَ مِمَّا يَقْضِيهَا إذَا دَعَوْت أَنْتَ اللَّهَ تَعَالَى: فَإِنَّك إنْ كُنْت مُسْتَحِقًّا لِلْعِقَابِ وَرَدِّ الدُّعَاءِ – مَثَلًا لِمَا فِيهِ مِنْ الْعُدْوَانِ – فَالنَّبِيُّ وَالصَّالِحُ لَا يُعِينُ عَلَى مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَلَا يَسْعَى فِيمَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَاَللَّهُ أَوْلَى بِالرَّحْمَةِ وَالْقَبُولِ. وَإِنْ قُلْت: هَذَا إذَا دَعَا اللَّهَ أَجَابَ دُعَاءَهُ أَعْظَمَ مِمَّا يُجِيبُهُ إذَا دَعَوْته .فَهَذَا هُوَ " **الْقِسْمُ الثَّانِي** " وَهُوَ أَلَّا تَطْلُبَ مِنْهُ الْفِعْلَ وَلَا تَدْعُوَهُ وَلَكِنْ تَطْلُبُ أَنْ يَدْعُوَ لَك. كَمَا تَقُولُ لِلْحَيِّ: أُدْعُ لِي وَكَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ – رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ – يَطْلُبُونَ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الدُّعَاءَ فَهَذَا مَشْرُوعٌ فِي الْحَيِّ كَمَا تَقَدَّمَ وَأَمَّا الْمَيِّتُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَغَيْرِهِمْ فَلَمْ يُشْرَعْ لَنَا أَنْ نَقُولَ: أُدْعُ لَنَا وَلَا اسْأَلْ لَنَا رَبَّك وَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَلَا أَمَرَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ وَلَا وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ بَلْ الَّذِي ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُمْ لَمَّا أَجْدَبُوا زَمَنَ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إنَّا كُنَّا إذَا أَجْدَبْنَا نَتَوَسَّلُ إلَيْك بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إلَيْك بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا فَيُسْقَوْنَ وَلَمْ يَجِيئُوا إلَى قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَائِلِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُدْعُ اللَّهَ لَنَا وَاسْتَسْقِ لَنَا وَنَحْنُ نَشْكُو إلَيْك مِمَّا أَصَابَنَا وَنَحْوَ ذَلِكَ. لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ قَطُّ بَلْ هُوَ بِدْعَةٌ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كَانُوا إذَا جَاءُوا عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ فَإِذَا أَرَادُوا الدُّعَاءَ لَمْ يَدْعُوَا اللَّهَ مُسْتَقْبِلِي الْقَبْرَ الشَّرِيفَ بَلْ يَنْحَرِفُونَ وَيَسْتَقْبِلُونَ الْقِبْلَةَ وَيَدْعُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا يَدْعُونَهُ فِي سَائِرِ الْبِقَاعِ ..وَأَمَّا **الْقِسْمُ الثَّالِثُ** وَهُوَ أَنْ يَقُولَ : اللَّهُمَّ بِجَاهِ فُلَانٍ عِنْدَك أَوْ بِبَرَكَةِ فُلَانٍ أَوْ بِحُرْمَةِ فُلَانٍ عِنْدَك : افْعَلْ بِي كَذَا وَكَذَا . فَهَذَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ ؛ لَكِنْ لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَلَفِ الْأُمَّةِ ".اهـ مجموع الفتاوى.

وقال ابن تيمية :" والشفاعة عندهم ليس معناها دعاء الله ورسوله كما هو مذهب المسلمين بل الشفاعة عندهم تعلق القلب بالوسائط حتى يفيض عليها بواسطة تلك الوسائط ما ينتفع به كما يفيض شعاع الشمس على الحائط بواسطة فيضه على المرآة وهذه من جنس الشفاعة التي يثبتها المشركون وهي التي نفاها الله في كتابه... وفيه بيان أنه لا تنفع الشفاعة عند الله إلا لمن أذن له فلا بد من اذن للشفيع، لا أن مجرد التوجه إليه ينفع المشفوع له، وذلك يقتضي تجدد اذن للشفعاء، وعندهم أنه لا يحدث من الله شيء للوسائط بل هي متولدة عنه لازمة لذاته أزلا وأبدا".اهـ الصفدية

والخلاصة:

1-الشفاعة التي عند المشركين ليست هي طلب الدعاء، بل هي تعلق القلب بالوسائط لأنها تنفع نفعًا ذاتيًا دون تدخل من الله، كما نصَّ ابن تيمية.

2- المناط الشركي في اتخاذ وسائط هو أنْ تظن أنَّ الله لن تصلَ إليه إلا بواسطة، كما أنك لن تحصل على رخصة المرور مثلًا إلا بواسطة ورشوة.

2- يُفرق ابن تيمية بين صور طلب الدعاء، فمن طلبها على وجه الشفاعة الشركية فهذا القسم الأول، بخلاف من طلبها مجردة فهذا القسم الثاني.

لذا قال ابن تيمية :"وأيضا فان طلب شفاعته ودعائه واستغفاره بعد موته وعند قبره ليس مشروعا عند أحد من أئمة المسلمين ولا ذكر هذا أحد من الأئمة الأربعة وأصحابهم القدماء وانما ذكر هذا بعض المتأخرين".اهـ

ترجيح قول ابن تيمية في مسألة النزاع:

فالراجح من مذهب ابن تيمية أنَّ لهذه المسألة صور كما قدمنا، وليست على صورة واحدة كما يظن البعض، فمنها ما هو شرك ومنها ما هو بدعة، وهذا ما أحدث الإشكال والاختلاف عند المعاصرين، والكل يستشهد بكلامه!، فمن قرأ تكفيره للصورة الشركية جلس يسرد العديد من المناطات التي لا تتحقق كلها في الصورة البدعية، ومن قرأ له أنها بدعة جلس يُعَدِدُ أمورًا لا ترقى لإخراج الصورة الشركية من الكفر..والحق في التفصيل.

الوقفة الحادية عشرة:

علماء أجازوا طلب الشفاعة من الأموات.

وههنا مطلبان:

المطلب الأول: ذِكر علماء أجازوا طلب الشفاعة من النبي.

المطلب الثاني: تكفير النجديين للمخالف.

المطلب الأول: ذكر علماء أجازوا طلب الشفاعة من النبي.

والحديث ههنا عن طلب الشفاعة من النبي وهو في قبره، دون الوجه الشركي المتقدم، بل على الوجه السادس محل النزاع..

– قال كمال الدين بن الهمام الحنفي في باب زيارة قبر النبي:" وَيَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى حَاجَتَهُ مُتَوَسِّلًا إلَى اللَّهِ بِحَضْرَةِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَعْظَمُ الْمَسَائِلِ وَأَهَمُّهَا سُؤَالُ حُسْنِ الْخَاتِمَةِ وَالرِّضْوَانِ وَالْمَغْفِرَةِ ، ثُمَّ **يَسْأَلُ النَّبِيَّ الشَّفَاعَةَ** فَيَقُولُ .**يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْأَلُك الشَّفَاعَةَ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْأَلُك الشَّفَاعَةَ** وَأَتَوَسَّلُ بِك إلَى اللَّهِ فِي أَنْ أَمُوتَ مُسْلِمًا عَلَى مِلَّتِك وَسُنَّتِك".اهـ فتح القدير

– وقال ابن مودود الموصلي الحنفي(ت–599هـ) فيما يُقال عند زيارة قبر النبي :" يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَحْنُ وَفْدُكَ، وَزُوَّارُ قَبْرِكَ، جِئْنَاكَ مِنْ بِلَادٍ شَاسِعَةٍ، وَنَوَاحٍ بَعِيدَةٍ، قَاصِدِينَ قَضَاءَ حَقِّكَ، وَالنَّظَرَ إِلَى مَآثِرِكَ، وَالتَّيَامُنَ بِزِيَارَتِكَ، وَالِاسْتِشْفَاعَ بِكَ إِلَى رَبِّنَا، فَإِنَّ الْخَطَايَا قَدْ قَصَمَتْ ظُهُورَنَا، وَالْأَوْزَارَ قَدْ أَثْقَلَتْ كَوَاهِلَنَا، وَأَنْتَ الشَّافِعُ الْمُشَفَّعُ، الْمَوْعُودُ بِالشَّفَاعَةِ وَالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}وَقَدْ جِئْنَاكَ ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِنَا، مُسْتَغْفِرِينَ لِذُنُوبِنَا، **فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، وَأَسْأَلْهُ أَنْ يُمِيتَنَا عَلَى سُنَّتِكَ، وَأَنْ يَحْشُرَنَا فِي زُمْرَتِكَ**، وَأَنْ يُورِدَنَا حَوْضَكَ، وَأَنْ يَسْقِيَنَا كَأْسَكَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَادِمِينَ، **الشَّفَاعَةَ الشَّفَاعَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَقُولُهَا ثَلَاثًا**".اهـ كتاب : الاختيار لتعليل المختار

– وقال القاضي عياض في الشفا:" قال ناظرا أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله فقال له مالك يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله تعالى أدب قوما فقال (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) الآية، ومدح قوما فقال (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) الآية، وذم قوما فقال (إن الذين ينادونك) الآية وإن حرمته ميتا كحرمته حيا فاستكان لها أبو جعفر وقال يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ؟ فقال ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عيه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة ؟ بل استقبله **واستشفع به فيشفعه الله** ".اهـ

قلتُ: وكيف يُشْفِّعُهُ الله وهو في قبره، وشفاعته لا تكون إلا يوم القيامة..مما يعني أن القاضي عياض يظن أنك إذا طلبتَ من النبي الشفاعة وهو في قبره الآن، فإنَّ الله يأذن له بها..

– قال الملا على قاري الهروي في شرحه لكلام القاضي المتقدم:" (وأدعو) أي الله سبحانه وتعالى بعد الزيارة (أم أستقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم؟ فقال) أي مالك (ولم تصرف وجهك عنه) أي عن رسولك (فهو) وفي نسخة صحيحة وهو أي والحال أنه (وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام) أي وسائر الأنام (إلى الله تعالى يوم القيامة) أي كما يشير إليه قوله عليه الصلاة والسلام آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة **(بل استقبله واستشفع به) أي اطلب شفاعته** وسل وسيلته في قضاء مراداتك وأداء حاجاتك **(فيشفّعك الله)** بتشديد الفاء أي **يقبل الله به شفاعتك** لأمرك ولغيرك وفي نسخة فيشفعه أي فيقبل شفاعته".اهـ شرح الشفا

– وقال الشيخ زاده الحنفي في كيفية زيارة قبر النبي:"وَيَقِفُ كَمَا يَقِفُ فِي الصَّلَاةِ وَيَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ...ثُمَّ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى حَاجَتَهُ ، وَأَعْظَمُ الْحَاجَاتِ: سُؤَالُ حُسْنِ الْخَاتِمَةِ وَطَلَبُ الْمَغْفِرَةِ؛ وَيَقُولُ:السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ , **أَسْأَلُكَ الشَّفَاعَةَ الْكُبْرَى** وَأَتَوَسَّلُ بِكَ إلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي أَنْ أَمُوتَ مُسْلِمًا عَلَى مِلَّتِكَ وَسُنَّتِكَ وَأَنْ أُحْشَرَ فِي زُمْرَةِ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ".اهـ مَجْمَعِ الْأَنْهُرِ فِي شَرْحِ مُلْتَقَى الْأَبْحُرِ

– وقال ابن الضياء المكي الحنفي –ت 789 هـ – في كيفة زيارة النبي:" السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، جزاك الله عنا يا رسول الله أفضل ما جزى نبياً ورسولاً عن أمته..أنت الشافع المشفع، وقد قال الله تعالى: "ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً" وقد جئناك يا رسول الله ظالمين لأنفسنا مستغفرين لذنوبنا، **فاشفع لنا إلى ربنا، واسأله أن يميتنا على سنتك، ويحشرنا في زمرتك**، ويسقينا بكأسك غير خزايا ولا ندامى، ويرزقنا مرافقتك في الفردوس الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، **يا رسول الله الشفاعة الشفاعة**".اهـ تاريخ مكة المشرفة .

تَتِمَّــة:

1-الذي يظهر لى من كلام ابن الهمام والعلماء السابقين أنّهم ظنوا أنَّ الله آذِنَ لنبيه في الشفاعة وهو في قبره، ولم يؤخر شفاعته ليوم الدين، وغاية ما في هذا من غلط، هو تقديم وقت الإذن فقط كما قدّمنا.

2- لا فرق بين طلب الشفاعة من النبي ومن صالحي الأموات، فكلاهما بدعة، ومن فرق بينهما فقد أخطأ.

المطلب الثاني: تكفير النجديين للمخالف.

ويبقى موقف علمائنا النجديين في تكفير طالب الدعاء (الشفاعة) هو ما يُعكر أجواء هذا البحث، وإن كان من الممكن حمل كلامهم ومقصدهم على الشفاعة الشركية التي ذكر ابن تيمية وقوعها في زمانه، خاصة أنَّ زمن الشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب قد وقع فيه أكثر مما وقع في العصر التيمي، إذ اعتقدت الناس أن للكون أقطاب أربعة تتصرف في الكون ووو..لكنَّ الحق إني لم أتحرَ أقوالهم بالعناية الكافية؛ نظرًا لضيق الوقت، والذي يظهر لي من الاطلاع في كتبهم هو التكفير بالمسألة عنوان البحث مطلقًا، وهو ما تبعهم عليه بعض المعاصرين، وبالرغم من ذلك فلم يرد عنهم تكفير المخالف من العلماء السابقين عليهم كابن الهمام وابن الجوزي وغيرهم، بل وقد صرحوا بعدم التكفير في هذه المسألة ...

قال عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب:" فإن قال قائل منفر عن قبول الحق والإذعان له: **يلزم من تقريركم وقطعكم، في أن من قال: يا رسول الله، أسألك الشفاعة، أنه مشرك مهدر الدم،** أن يقال بكفر غالب الأمة، ولا سيما المتأخرين، **لتصريح علمائهم المعتبرين أن ذلك مندوب**، وشنوا الغارة على من خالف في ذلك ! قلت: لا يلزم، لأن لازم المذهب ليس بمذهب... ونحن كذلك : **لا نقول بكفر من صحت ديانته،** وشهر صلاحه، وعلم ورعه وزهده، وحسنت سيرته، وبلغ من نصحه الأمة ، ببذل نفسه لتدريس العلوم النافعة والتأليف فيها، **وإن كان مخطئاً في هذه المسألة أو غيرها، كابن حجر الهيتمي**، فإنا نعرف كلامه في الدر المنظم، ولا ننكر سمة علمه، ولهذا نعتني بكتبه، كشرح الأربعين، والزواجر وغيرها ؛ ونعتمد على نقله إذا نقل **لأنه من جملة علماء المسلمين** . ".اهـ الدرر السنية.

والكلام نفسه نقله عنه ابن سحمان في كتابه كشف الأوهام والالتباس.

وكما هو معلوم من عقائد النجديين تكفيرهم العابد لغير الله ومن لم يكفره، وقد نقلوا في هذا إجماعًا، وقد أكفر الشيخ محمد بن عبدالوهاب مشائخ عصره وعلماء العارض، واعترف أنَّه لم يكُ مسلمًا .. إلا إنَّ الذي يظهر من تقريرهم السابق عن صحة إسلام ابن حجر الهيتمي يدل على أنَّ هذه المسالة ليست على نفس درجة الدعاء المباشر لغير الله عندهم، والله أعلم بما كانوا يقصدون..

الوقفة الثانية عشرة:

تعليقات على بحث (أبي عثمان)

وتحت هذا الفصل سأقف سريعًا مع أبرز ما جاء في بحث الأخ الفاضل، وهو ممن تبنوا القول بالتكفير، علمًا بأنه نقل في بحثه نقولات تدل على أن المسألة بدعة، ولن نقف معه عليها، وكذلك لن نقف على النقولات التي لم يُصرح فيها ابن تيمية أنَّ المسألة شركٌ.

الملاحظة الأولى:

قال أبو عثمان:" **إن من المؤسف أن أكبر ما يستدل به المخالف في هذه المسألة هو بعض القصص والروايات والمنامات المنسوبة لأهل العلم روايةً**".اهـ

قلتُ:

1-المخالف لك لا يستدل بالقصص والمرويات المكذوبة، إنَّما يستدل بذلك من يجيز هذه المسألة، كابن الجوزي وابن عبد الكافي السبكي والسمهودي والملا علي قاري وابن الهمام والنووي وغيرهم ممن جاء ذكرهم في هذا البحث، وأشار إليهم ابن تيمية في كلامه .

2- أما المخالف لك فيرى أنَّ هذه المرويات أغلبها ضعيفة فعلًا، وأنَّ هذه المسألة بدعة، وبه قال السهسواني وابن تيمية كما نقلنا عنهم.

3-وأدلتهم في عدم التكفير ليست المنامات كما قلتَ، بل مفهوم العبادة والشرك، والقياس على نظائرها كما في التلقين والجن، ومن قبل عدم وقوع الإجماع، وإن زعمه البعض.

قال أبو عثمان:"**وقد جاء التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده ؟!!**".اهـ

قلتُ:

قد بينَّا أنَّ طلب الدعاء ليس عبادة لأكثر من سبب كما قدمنا، وكذلك بينَّا أنَّه دعاء لُغويٌ وحسب، وفرقنا بالأدلة بين اللُغوي والشرعي.

الملاحظة الثانية:

قال أبو عثمان في حكاية العتبي:" **فقوله: "مستغفراً لذنبي" أي مستغفراً الله طبعاً، وليس طالباً المغفرة من الرسول..وقوله: "ومستشفعاً بك" أي طالباً الله كما طلب الاستغفار أولاً من الله بك أو داعياً الله بحقك أو بحق شفاعتك عنده.**".اهـ

قلتُ: هذا الكلام لا يصح، فقول العتبي:"مستغفرًا لذنبي" أى طالبًا الاستغفار من الرسول، أي يدعو له الرسول بالمغفرة متأولًا قوله تعالى:﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾، أما قول العتبي :"ومستشفعاً بك" فمراده طلب الشفاعة من النبي، دَلَّ على هذا ما نقلناه أعلاه عن القرطبي وأبو حيان والنسفي والثعالبي فراجعه، ودَلَّ عليه أكثر، رواية الصحابي بلال بن الحارث :" استسق لأمتك" وقد صححها ابن حجر وابن كثير كما تقدم، ودَلَّ عليه أكثر وأكثر إجازة بعض العلماء لطلب الشفاعة والدعاء..

الملاحظة الثالثة:

قال أبو عثمان:" **كما أنه يلزم لإعتقاد هذا الأمر لوازم باطلة, كدعاء الملائكة, وكجعل صاحب القبر يسمع جميع الأصوات القريبة والبعيدة كالهمس وغيره, ويسمع مطالب الجميع وإن بلغ عددهم بالمئات أو الآلاف وإن طلب منه في وقت واحد, ويفهم جميع اللغات واللهجات**".اهـ

قلت: كلامك كله حق إنْ كنتَ تقصد به الصورة الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة، أما السادسة فلا كما أوضحنا.

الملاحظة الرابعة:

قال أبو عثمان:" **قد يطلق ابن تيمية أو غيره من العلماء رحمهم الله على الشرك أنه بدعة أو أنه مُحرّم، فهذا صحيح فإن الشرك بالله محرم و بدعة**".اهـ

قلتُ:

أولًا: لم يُثْبت أحدٌ إلى الآن أنها شركٌ بناء على الأصول الاعتقادية، بل غايتهم كلام علماء.

ثانيًا: إطلاق ابن تيمية على الشرك أنَّه بدعة صحيح، لكن ليس إذا كان كلامه في سياق التدرج والتقسيم والترتيب.

ثالثًا: يؤيد قول ابن تيمية بالتبديع تفسيره للشفاعة، الذي يُحتم أنه ليس كل طلبٍ للشفاعة كفر، بل التي خرجت مخرج شفاعة المشركين، وهي التي نفاها الله، وقد تقدم ذكره لمناط الشفاعة المكفرة.

رابعًا: ويؤيد كذلك أنَّ مذهب ابن تيمية تبديع المسألة، إجازته الاستعانة بالجن في المباح، ومن ثَمَّ إجازته طلب الدعاء منها، وإن قيل كيف يجيز الاستعانة بالجن ولا يجيزها بالأموات، قيل لأنَّ ابن تيمية ترجح لدية استعانة الصحابة بالجن، في الوقت الذي ترجح عنده عدم استشفاع الصحابة بالأموات .

خامسًا: ومما يؤيد كذلك قوله بتبديع المسألة إباحته للتلقين، وقوله عنه إنَّه أعدل الأقوال كما نقلنا عنه، وكلاهما طلبٌ من ميت، وقد أباح الأول لرجحان ثبوته عن الصحابة عنده، وبَدَّعَ الثاني لعدم ثبوته.

الملاحظة الخامسة:

نقل الأخ عن ابن تيمية قوله:" **ومن رحمة الله تعالى أن الدعاء المتضمن شركا كدعاء غيره أن يفعل, أو دعائه أن يدعو ونحو ذلك لا يحصل غرض صاحبه ولا يورث حصول الغرض شبهة إلا في الأمور الحقيرة**"اهـ اقتضاء الصراط المستقيم

قلتُ:

1- كلام ابن تيمية عام عن الدعاء الشرعي، الذي لا يتضمن أي نوع من الشرك الأكبر والأصغر.

2- فلم يصرح ابن تيمية أنَّ مقصده الدعاء المتضمن شركًا أكبرًا.

3- بل غاية الأمر أنه جمع المنهيات في عبارة واحدة دون تفصيل، وهذا كقوله فيما نقلنا عنه:" فإن هذا الفعل منه ما هو كفر صريح ومنه ما هو منكر ظاهر".اهـ، فإنَّه جمع الكفر والمنكر في عبارة واحدة دون أن يذكر أيهما المنكر وأيهما الكفر.

4- وهذا دأب ابن تيمية في كثير من الأمور؛ ولعل أظهر مثال على ذلك تعريفه للعبادة الذي أقحم فيه الصلاة والإحسان إلى الجار، مما أشْكَلَ أيضًا على بعضهم في مفهوم الشرك، حتى اشترطوا له الاعتقاد.

5- وطريقة الجمع بين المنهيات معمولٌ بها أيضًا في القرآن، فقد قال تعالى:﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾

وفي المأمورات قال:﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾

6- وعلى فرض أن مقصد ابن تيمية الشرك الأكبر، فإن كلامه محمول على الشفاعة الشركية، التي فيها يظن الطالب أنَّ طلبه من الميت أنفع، وأن للميت جاهًا لا يرد ..إلخ، ويعضد هذا قول ابن تيمية في نفس المقام: "حتى إنه سبحانه قطع أثر الشفاعة بدون إذنه كقوله سبحانه من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه".اهـ

ونقل الأخ قول ابن تيمية:"**فهذه الشفاعة التي نفاها القرآن تتضمن نفى ما كان يقوله مشركوا العرب وأمثالهم من المشركين وهى من جنس شرك النصارى ونحوهم من الضلال المنتسبين إلى الاسلام حيث يعتقدون في الملائكة او الانبياء أو الشيوخ انهم شفعاء لهم عند الله كما يشفع الشفعاء الى ملوك الدنيا ويضربون لله مثلا فيقولون من أراد أن يتقرب الى ملك عظيم فلا ينبغى له ان يأتيى اليه اولا بل يتقرب الى خاصته وهم يرفعون حوائجه ويقربونه اليه**".اهـ

ونقل أيضًا قول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن: "**وقد تقدم أن قول النصارى : يا والدة المسيح اشفعي لنا عند الإله. شرك بإجماع المسلمين**" اهـ

قلتُ: نعم، قول النصارى ياوالدة الإله اشفعي، من الشرك الأكبر قطعًا؛ لأن هذه هي الشفاعة الشركية، إذ يظنون أنَّ والدة الإله لها جاه وسلطان على وَلَدِهَا، وأن ابنها لا يستطيع أن يرد شفاعة أمه، وإلا صار عاقًّا!، فإجابة السؤال متوقفة على إرادة الشفيع وهو الوالدة نفسها، لا المشفوع عنده..وهذا بعينه لو فهمته جيدًا ستفهم حقيقة الشفاعة الشركية التي كان يعتقدها كفار قريش في أصنامهم، وهي اعتقاد القبوريين في أقطابهم أيضًا، ولعل ما يدل على هذا هو ذهابهم لأصنام مخصوصة وقبور مخصوصة..فلماذا لم يطلب القبوري الشفاعة من أي قبر؟.. لماذا يسافر مئات الكيلو مترات إلى قبر فلان أو علان؟ والجواب: لأنه يظن أنَّ لصاحب هذا القبر ميزة خاصة عند الإله من الجاه والمكانة، وأن الله لا يرد شفاعته، وأن الله اتخذهم وسطاء يرفعون إليه الحوائج كما تفعل ملوك الأرض ووو..الخ..وهذا شرك، وعلى هذا جاء كلام ابن تيمية أعلاه، فاقرؤه مرة أخرى بعناية.

نقل الفاضل قول ابن تيمية:" **وإذا جاز طلب هذا منه، جاز أن يطلب ذلك من الملائكة، فيقال: يا جبريل يا ميكائيل، اشفع لنا إلى ربك، ادع لنا. ومعلوم أن هذا ليس من دين المسلمين، ولا دين أحد من الرسل، لم يسنّ أحد من الأنبياء للخلق أن يطلبوا من الصالحين الموتى والغائبين والملائكة دعاء ولا شفاعة، بل هذا أصل الشرك**"اهـ

قلتُ: أ- طَلَبَ الكفار الشفاعة من الملائكة؛ لاعتقادهم فيها منزلة خاصة عند الإله.

ب-الشفاعة الواردة في هذا النقل هي الشفاعة الشركية، بدليل أن ابن تيمية قال بعدها في نفس السياق:"فهذه الشفاعة التي كان المشركون يثبتونها أبطلها القرآن في غير موضع، وهي كشفاعة المخلوق عند المخلوق بغير إذنه، فإن هذا الشافع شريك للمشفوع إليه، فإنه طلب منه ما لم يكن يريد أن يفعله، فيحتاج لقضاء الشفيع أن يفعله، فالشفيع بغير إذن المشفوع إليه شريك له، والله تعالى لا شريك له".اهـ

ج- ومن هنا أقول لا إشكال في قوله أصل الشرك.

نقل الأخ قول ابن تيمية:"**وَالْمُشْرِكُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ يَقُولُونَ:إنَّا نَسْتَشْفِعُ بِهِمْ أَيْ نَطْلُبُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَشْفَعُوا فَإِذَا أَتَيْنَا قَبْرَ أَحَدِهِمْ طَلَبْنَا مِنْهُ أَنْ يَشْفَعَ لَنَا فَإِذَا صَوَّرْنَا تِمْثَالَهُ وَالتَّمَاثِيلُ إمَّا مُجَسَّدَةٌ وَإِمَّا تَمَاثِيلُ مُصَوَّرَةٌ كَمَا يُصَوِّرُهَا النَّصَارَى فِي كَنَائِسِهِمْ قَالُوا:فَمَقْصُودُنَا بِهَذِهِ التَّمَاثِيلِ تَذَكُّرُ أَصْحَابِهَا وَسِيَرِهِمْ وَنَحْنُ نُخَاطِبُ هَذِهِ التَّمَاثِيلَ وَمَقْصُودُنَا خِطَابُ أَصْحَابِهَا لِيَشْفَعُوا لَنَا إلَى اللَّهِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ:يَا سَيِّدِي فُلَانٌ أَوْ يَا سَيِّدِي جرجس أَوْ بِطَرْسِ أَوْ يَا سِتِّي الْحَنُونَةُ مَرْيَمُ أَوْ يَا سَيِّدِي الْخَلِيلُ أَوْ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ اشْفَعْ لِي إلَى رَبِّك وَقَدْ يُخَاطِبُونَ الْمَيِّتَ عِنْدَ قَبْرِهِ:سَلْ لِي رَبَّك أَوْ يُخَاطِبُونَ الْحَيَّ وَهُوَ غَائِبٌ كَمَا يُخَاطِبُونَهُ لَوْ كَانَ حَاضِرًا حَيًّا وَيُنْشِدُونَ قَصَائِدَ يَقُولُ أَحَدُهُمْ فِيهَا:يَا سَيِّدِي فُلَانٌ أَنَا فِي حَسَبِك أَنَا فِي جِوَارِك اشْفَعْ لِي إلَى اللَّهِ سَلْ اللَّهَ لَنَا أَنْ يَنْصُرَنَا عَلَى عَدُوِّنَا سَلْ اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنَّا هَذِهِ الشِّدَّةَ أَشْكُو إلَيْك كَذَا وَكَذَا فَسَلْ اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ هَذِهِ الْكُرْبَةَ أَوْ يَقُولُ أَحَدُهُمْ : سَلْ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لِي .. فَهَذِهِ الْأَنْوَاعُ مِنْ خِطَابِ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ عِنْدَ قُبُورِهِمْ وَفِي مَغِيبِهِمْ وَخِطَابِ تَمَاثِيلِهِمْ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ** ".اهـ قاعدة جلية في التوسل والوسيلة.

قلتُ: وهذا النقل أخطر ما نقلوه عن ابن تيمية، لذا لابد من وقفة تأمل مطولة معه قبل البيان:

1-قال ابن تيمية في أول الكلام:"وَالْمُشْرِكُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ".اهـ ، فكلامه ههنا للعهد الذكري، فهو يقصد مشركين معينين سبق ذكره لهم، فمن هم ياترى؟

2- قال ابن تيمية بعدها عنهم:"يَقُولُونَ..نَطْلُبُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَشْفَعُوا ".اهـ..فما هي حقيقة تلك الشفاعة التي طلبوها من الملائكة والأنبياء؟

3-ثم نقل عنهم:" وَنَحْنُ نُخَاطِبُ هَذِهِ التَّمَاثِيلَ..لِيَشْفَعُوا لَنَا إلَى اللَّهِ".اهـ ، أي إنهم صنعوا تماثيلًا.. فما هي حقيقة تلك الشفاعة التي طلبوها من التماثيل؟

4- ونقل كلامهم:" يَا سَيِّدِي جرجس أَوْ بِطَرْسِ أَوْ يَا سِتِّي الْحَنُونَةُ مَرْيَمُ".اهـ ..وهذا كلام النصارى.

4-ثم قال في أخر كلامه إنَّ طلب الشفاعة من الملائكة، والأنبياء، والتماثيل:"مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ".اهـ

وبيان حقيقة النقل السابق:

أولًا : إن المشركين الذين قصدهم ابن تيمية طائفتان، وهم مشركو قوم نوح وقوم إبراهيم ومن نحا نحوهم، وقد ذكر هذا بنفسه قبل كلامه المنقول أعلاه مباشرة حيث قال:"وَالْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِالشِّرْكِ أَصْلُهُمْ صِنْفَانِ:قَوْمُ نُوحٍ وَقَوْمُ إبْرَاهِيمَ..يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ إنَّمَا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ..إلى أن قال ..كَانَ أَقْوَامٌ يَدْعُونَ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ كَالْعُزَيْرِ وَالْمَسِيحِ".اهـ

ثانيًا: أما عن حقيقة الشفاعة التي طلبها قوم نوح وقوم إبراهيم والنصارى، فقد بينها ابن تيمية بنفسه قبل كلامه هذا بثلاث صفحات ..

فقال ابن تيمية:" نَفْيُ الشَّفَاعَةِ الَّتِي يُثْبِتُهَا أَهْلُ الشِّرْكِ وَمَنْ شَابَهَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ لِلْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الْقَدْرِ أَنْ يَشْفَعُوا عِنْدَهُ بِغَيْرِ إذْنِهِ كَمَا يَشْفَعُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عِنْدَ بَعْضٍ فَيَقْبَلُ الْمَشْفُوعُ إلَيْهِ شَفَاعَةَ شَافِعٍ لِحَاجَتِهِ إلَيْهِ رَغْبَةً وَرَهْبَةً وَكَمَا يُعَامِلُ الْمَخْلُوقُ الْمَخْلُوقَ بِالْمُعَاوَضَةِ . فَالْمُشْرِكُونَ كَانُوا يَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَيُصَوِّرُونَ تَمَاثِيلَهُمْ فَيَسْتَشْفِعُونَ بِهَا وَيَقُولُونَ:هَؤُلَاءِ خَوَاصُّ اللَّهِ فَنَحْنُ نَتَوَسَّلُ إلَى اللَّهِ بِدُعَائِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ لِيَشْفَعُوا لَنَا كَمَا يُتَوَسَّلُ إلَى الْمُلُوكِ بِخَوَّاصِهِمْ لِكَوْنِهِمْ أَقْرَبَ إلَى الْمُلُوكِ مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَشْفَعُونَ عِنْدَ الْمُلُوكِ بِغَيْرِ إذْنِ الْمُلُوكِ وَقَدْ يَشْفَعُ أَحَدُهُمْ عِنْدَ الْمَلِكِ فِيمَا لَا يَخْتَارُهُ فَيَحْتَاجُ إلَى إجَابَةِ شَفَاعَتِهِ رَغْبَةً وَرَهْبَةً فَأَنْكَرَ اللَّهُ هَذِهِ الشَّفَاعَةَ فَقَالَ تَعَالَى:{مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بِإِذْنِهِ}... فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي أَثْبَتَهَا الْمُشْرِكُونَ لِلْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ حَتَّى صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ وَقَالُوا اسْتِشْفَاعُنَا بِتَمَاثِيلِهِمْ اسْتِشْفَاعٌ بِهِمْ وَكَذَلِكَ قَصَدُوا قُبُورَهُمْ وَقَالُوا نَحْنُ نَسْتَشْفِعُ بِهِمْ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ لِيَشْفَعُوا لَنَا إلَى اللَّهِ وَصَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ فَعَبَدُوهُمْ كَذَلِكَ وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ أَبْطَلَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَذَمَّ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهَا وَكَفَّرَهُمْ بِهَا ".اهـ قاعدة جلية في التوسل والوسيلة.

1- فتأمل قوله :"يظُنُّونَ أَنَّ لِلْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الْقَدْرِ أَنْ يَشْفَعُوا عِنْدَهُ بِغَيْرِ إذْنِهِ".اهـ فهذه حقيقة الشفاعة التي طلبوها من الملائكة والأنبياء، وهي بغير إذنه سبحانه.

2-قوله :" وَيُصَوِّرُونَ تَمَاثِيلَهُمْ فَيَسْتَشْفِعُونَ بِهَا وَيَقُولُونَ..يَشْفَعُونَ عِنْدَ الْمُلُوكِ بِغَيْرِ إذْنِ الْمُلُوكِ ".اهـ وهي نفسها الشفاعة التي طلبوها من التماثيل.

3- ثم أكد هذا بقوله :" فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي أَثْبَتَهَا الْمُشْرِكُونَ لِلْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ حَتَّى صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ وَقَالُوا اسْتِشْفَاعُنَا بِتَمَاثِيلِهِمْ".اهـ

4-والحاصل إنَّ كلامه الذي نقله عنه الأخ أعلاه عن شفاعة الملائكة والتماثيل يوضح حقيقته ابن تيمية بنفسه قبلها بعدة صفحات كما تبين.

وأخيرًا:

إنَّ كل ما نقله المُكفرون عن ابن تيمية في الشفاعة، لو قَرَؤُهُ مرةً أخرى سيجدونه يتحدث بالنص عن الشفاعة الشركية، لذا سأكتفي ببيان ما تقدم من نقولات، فإن فيما مضى كفاية عما تبقى..

الوقفة الآخيرة:

نصيحة وفضيلة.

كراهة الكلام عمّا لم يقع :

وهذه نصيحة للقائلين بالتبديع، أسوقها تحجيمًا للخلاف وانهاءً للنزاع، ويكون هذا بتقييد نظرهم بالواقع، وامتناعهم عن الكلام فيما لم يقع؛ درءً للمفاسد..

- قال ابن رجب الحنبلي:"كان كثير من الصحابة والتابعين يكرهون السؤال عن الحوادث قبل وقوعها، ولا يجيبون عن ذلك، قال عمرو بن مرة خرج عمر على الناس فقال أحرج عليكم أن تسألون عن ما لم يكن فإن لنا فيما كان شغلا،

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال لا تسألوا عما لم يكن، فإني سمعت عمر لعن السائل عما لم يكن، وكان زيد بن ثابت إذا سئل عن شيء يقول كان هذا، فإن قالوا لا ، قال دعوه حتى يكون،

وقال مسروق سألت أبي بن كعب عن شيء فقال أكان بعد، فقلت لا، فقال أجمعنا يعني أرحنا حتى يكون، فإذا كان اجتهدنا لك رأينا

وقال الشعبي سئل عمار عن مسئلة فقال هل كان هذا بعد، قالوا لا، قال فدعونا حتى يكون، فإذا كان تجشمناه لكم، وعن الصلت بن راشد قال سألت طاوسا عن شيء فانتهرني فقال أكان هذا قلت نعم قال آلله قلتُ آلله أصحابنا أخبرونا عن معاذ بن جبل أنه قال يأيها الناس لا تعجلوا بالبلاء قبل نزوله فيذهبكم هاهنا وهاهنا فإنكم إن لم تعجلوا بالبلاء قبل نزوله لم ينفك المسلمون أن يكون فيهم من إذا سئل سدد أو قال وفق، وقد خرجه أبو داود في كتاب المراسيل مرفوعا من طريق ابن عجلان عن طاوس عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا تعجلوا بالبلية قبل نزولها فإنكم إن لم تفعلوا لم ينفك المسلمون أن يكون منهم من إذا قال سدد ووفق وأنكم إن عجلتم تشتت بكم السبل هاهنا وهاهنا".اهـ جامع العلوم والحكم.

فضيلة الرجوع إلى الحق:

وكما وجهتُ نصيحة للمُبدعين أوجه أيضًا نصيحة أخرى للمُكفرين بفضيلة العودة إلى الحق، فإن كان بدا لك أيها القاريء الكريم خلاف ما كنتَ تعتقد فاعلم أنَّه سيعلو قدرك بالرجوع إلى الحق، وقد عاد من هم أعلى مني ومنك، فقد عاد أبو بكر الصديق فقال:" فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لِذَلِكَ صَدْرِي وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرُ"،

ولقد قال عمر بن الخطاب:" الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل"، ومن علماء السلف من عادوا إلى الحق، فهاهو نعيم بن حمَّاد يعترف أنه كان جهميا، وقد تراجع الجويني والرازي، وعاد أبو الحسن عن قول المعتزلة، وقدمنا في هذا البحث اعتراف ابن تيمية ورجوعه، واعلم أيها الكريم أنَّ الحق مباين لخُلُقِ أتباعه، فإنْ رأيت ما يسوءك من أحدهم، فلا تجعلنها مصدةً لك عن الحق، فإنَّ آفة الزمان فساد الطَّوية، وانبعاج الأخلاق، وحب الظهور والتعالم، فالزم الحق وإن فسد الخَلق.

- قال ابن الجوزي:" وقد كان في السلف قدس الله أرواحهم من إذا عرف أنه قد أخطأ لم يستقر حتى يظهر خطأه ويعلم من أفتاه بذل".اهـ كتاب تعظيم الفتيا.

- وقال الشوكاني: "من آفات التعصب الماحقة لبركة العلم: أن يكون طالب العلم قد قال بقول في مسألة ، كما يصدر ممَّن يفتي ، أو يصنِّف ، أو يناظر غيره ، ويشتهر ذلك القول عنه ، فإنه قد يصعب عليه الرجوع عنه إلى ما يخالفه ، وإن علم أنه الحق وتبيَّن له فساد ما قاله ،ولا سبب لهذا الاستصعاب إلا تأثير الدنيا على الدين ، فإنه قد يسوِّل له الشيطان أو النفس الأمارة أن ذلك ينقصه ،ويحط من رتبته ، ويخدش في تحقيقه ، ويغضّ من رئاسته ،وهذا تخيل مختل ، وتسويل باطل ، فإن الرجوع إلى الحق يوجب له من الجلالة والنبالة وحسن الثناء ما لا يكون في تصميمه على الباطل ، بل ليس في التصميم على الباطل إلا محض النقص له والإزراء عليه بالاستصغار لشأنه".اهـ كتاب أدب الطلب ومنتهى الأرب.

قال ابن القيم في نونيته عن تراجعه إلى الحق ..

يا قوم والله العظيم نصيحة * من مشفق واخ لكم معوان**

جربت هذا كله ووقعت في * تلك الشباك وكنت ذا طيران**

حتى أتاح لي الإله بفضله * من ليس تجزيه يدي ولساني**

حَبْرٌ أتى من أرض حران * فيا أهلا بمن جاء من حران**

فالله يجزيه الذي هو أهله * من جنة المأوى مع الرضوان**

أخذت يداه يدي وسار فلم يرم * حتى أراني مطلع الايمان**

خاتمــــة:

وفي الختام أقول: هذا ما توصلت له بعد بحثٍ مستفيض في المسألة، تذبذبتُ فيها تارة، وترجح لدي القول بالتبديع تارة، وتارة بالتكفير، حتى بحثتها من وجهة نظر كل فريق، وكأني اتبناها تارة، وأنقضها أخرى، فتبين لي بعد تأملٍ ونظر أنَّ الحق في التفصيل، وإنْ بدا لي خلاف ذلك غدا، فسأعود ولا كرامة، فإنَّ الحق شمسٌ واتباعه نجوم، إنْ ماتت النجوم، فشمس الدنيا لا تموت إلا بإذن باريها، وإن كان من تقليدٍ فتقليدُ شمس الحق أولى، فإنَّ نجوم السماء غدًا لن تراها ..

واعلم أنَّ البحث عن الحق هو خريطتك التى تعينك على مواصلة السير في طريق النجاة، ثم اعلم أن إرضاء الناس غاية لا تُدرك، فإن لم تبحث قالوا مقصر، وإن بحثت فأنت متهم، اللهم إن وافقت نتائج بحثك اهوائهم، حينئذٍ فأنت الذكي الفطن ذو الهمّة والنشاط الحسن، وإن لم تأتِ بما يوافق رغباتهم فأنت الحشرةُ المبتذلة في اقتفاء آثار العلما، فدع عنك ما يقولون، واعجل إلى مرضاة الإله الأعظم، قال تعالى على لسان موسى: ﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**﴾، فرضا الله غاية لا تترك ومرضاة البشر لا تُدرك .

اللهم إنِّي أسألك حُسن النية، وحُسن المقصد، وحُسن الوسيلة، وحُسن الختام، وحُسن الحساب يوم الميعاد، اللهمَّ لا تفرق شتات الموحدين، واجمعهم ياربنا على الحق المبين، واهدهم واهدِ بهم إلى الصراط المستقيم، وأنر أبصارهم إلى طريق الإيمان، واشرح صدورهم للإسلام والإحسان، واجعلهم للمتقين أئمة، وعلى المؤمنين أذلة ، وعلى الكافرين أعزة ..

وصلِّ اللهم على محمد الآمين، وعلى آله والصحب أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

تمت بحمد الله .

1438/01/26هـ

2016/10/27م

للملاحظات:
ELNAGDY_1@YAHOO.COM